الدخَّاخين

الدخاخين

عبد الله الشيخ

رواية

ISBN 9789773120108

© Willows House 2021

الطبعـة الأولـى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

عبد اللَّه الشيخ

الدّخاخِين

رواية*

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

إهداء

إلى الحصاحيصا .. مدينة حسن وراق، وهاشم كرار.

(بعضُ عُمرِكَ

مَا لم تَعِشهُ

ومَا لمْ تمُتْهُ

ومَا لمْ تَقُلْهُ

ومَا لا يُقَال).

محمّد مِفتاح الفيْتُورِي

١

سـأرحلُ يـا صديقـي دونَ منديـل وداع. وحـينَ أتجـاوزُ هواءَنـا الإقليمـي ببضـعِ زفـراتٍ، سـأُمزِّقُ تذكـرة الإيـابِ وملامـح مـن أُحِـب.

انطفـأ قنديـل النّهـار. غَرْشـةٌ[١] مـن شـاطئ بنغـازي تكفـي لإسـكات العويـل. بُقَّـةٌ أو اثنتـان مـن هـذه البُوخـة[٢]، تهـدّئ رعْشـة الكَاروشـة وتُلغِـي كل هـذا الأنـين.

أول عهـدي بهـذه المدينـة، سـمعتُ قائِدهـم يقـول إنّ ظاهـرة الإرهـاب في الجزائـر سـببُها قلّـة مصادِر الميـاه في بلـدان المغرب العربي.

«خُدُّ!»[٣]

بعـدَ ذلِـكَ وفي الصبـاح، كان ترهـونيٌّ مـن بـني جِلدتنـا يتهامـسُ

١ قارورة.

٢ الخمر.

٣ عبارة استنكار وتّهكُم، وتعني عند السودانيين: انتبه لهذا القول.

بيننـا، أن القائِـد «صَـارْ مَيّـة»!

يا أولاد الإيه. هل ضاقت بِكم حتى عرِفتم التّنْكِيت؟

التقيتـه في حمامـات القبّـة. كان وجهـه مُضلّـلًا. اسـمه خالـد شَـهاوي. مُدخـنٌ شرِهٌ، مولـعٌ بالنسـاء والخمـر، ويعمـلُ طاهيًـا في أحـد فنـادق الدرجـة الأولى بالقاهـرة. اسـتأجر لنـا شِـقّة مـن غُرفتـين في «طُومَـان بَـاي». صاحِبـة الشـقّة تُدعـى «مَـدام جِنـدي». بعـدَ مقتـل أبيـه في حـرب السُـويس، عَاملتـهُ حكومـة المجهـود الحـربي كـ«ابـن نِيـل». ومـن يومهـا كان شَـهاوي يستشـهدُ في اللّيَـالي بواحِـدة مِـن بنـات بمْبـا.

هذا طبعُ المجاهدين البَاشبوزق.

هذا حالُ الدنيا.

إذا وقعت السّماء على ليلِ القاهرة لرفعتها أرجل النساء!

كان يسـتقدمهُنَّ إلى الشـقّة الـتي اسـتأجرها لنـا. تلـك الملاءات الخاطئـة تتبـعُ مـدام جِنـدي. امـرأةٌ ناضِجـة تحلِـق شـعرها «كابوريـا» فتبـدو مُتغلمِنـة أكـثر وأكـثر. كنـتُ أُدقِّـق النظـر في أشـيائها المبعـثرة فـلا أرى سـببًا لصرامتهـا في وجهـي، إلا كونهـا تُـداري تفلُّـت الرّغبـات أمـامَ طالِـب لُجـوء.

دفعنـا لهـا أجـرة الشـهر مقدّمًـا. وضعـت عُصارتهـا في المِينـي جيـب ونزلـت سـلالِم العمـارة.. طرقعـة مِشْـيَتها المُفعمـة بالتسـاؤلاتِ لـم تَـزلْ عَالقـةً في مُخيِّلـتي.

القاهرة مدخنةٌ عظيمة.. قال لي ابن عمي الذي كان صديقي:

- هـب أنـك الآنَ تقـفُ عـلى رصيـف محطّـة «رمْسِـيس».. آه، وبعديـن؟

- حسافر ليبيا.

- يـا أخـي أنـا سـؤالي واضِـح: بعـد وصولـك القاهـرة، حتعمـل شُـنو؟ وحتمـشِي ويـن؟

قلـتُ مـا معنـاهُ أن الضائعـينَ يهربـونَ إلى صَحـراءِ الأمـل عـبرَ مَنفـذ «السـلّوم». خشـيتُ أن أقـولَ لـه إنـني سـأفترشُ الأرضَ قبالـة رأس الحُسـين، وأن روحَـه سـيعصِمُني مِـن المَطـر، الـبرد والجـوع.. اسـتحضرتُ ردودًا مـن ذات الشّـاكِلة، وانتقيـتُ منهـا مـا أصـدُّ بـه خوفـه عـليَّ:

- بعد وصولي القاهِرة «الله في».

- لا أظُن أن اللهَ موجودٌ بالقاهرة!

عندما قالها هكذا، لم يكن مُلحِدًا بل كان مُشفِقًا.

أمـام المقـام وفي أزِقّـة الغوريـة، تـراءت لي جلابيـب نسـاء.. نِسـاء في ألـوان الكَسْـتور، يختلـط في مشـيِهنّ غنـجٌ موبـوءٌ بجرجرةِ الـكلامِ وتلّـة الأيَـادِي:

- يا ابن النيل يا سَمَارة.

- ربنا يِفتحْ عليك كمَان وكمَان.

- تِلائي اللّي تِسعِدكْ، «آدِرْ»[٤] يا كريم.

- بَرَكـة سِـيدنا الحُسـين «يـرزُأك»[٥] بِنْـتِ الحـلال الـلّي تِطَبْطَـبْ عليـك.

نسـوةٌ بدينـات، كأنَّ مـا يدخـل جوفهـنَّ يسـتقر في أذنابِهـنَّ. أنْشـدْنَ لي مـوّالًا يسـتعطف قبـور الصالحـين. بقشيشـهُنَّ مِـن حُتْحـات الجيْـب -بَريـزة أو رُبـع جنيـه، سـعِيفة خـبزٍ أو أصابِـع مـوزٍ- أو، أو.. نسـاء يعِشـنَ بِمَسـوح القبـورِ ويُجمِعـنَ سـكوتيًّا عـلى أنَّ السّـعادة لا تـأتي إلا مشـبوكة في حضـن أُنـثى.

المـرأةُ المُتغلمِنـة طلبـت زيـادة إيجـار الشـقّة قبـل اكتمـال الشـهر. صحيفـة «الأهـرام» كتبـت مـا معنـاهُ أن رئاسـة الجمهوريـة المِصريـة عـلى درايـة كاملـة بمـا يجـري داخِـل قصـور الإخـوان في الخرطـوم. عـمّ عبـدُه البـوّاب عـلى يقـين بـأن «الأهْـرام مايِكْدِبْـشْ»، ولا أحـد يُمكنـه أن يهـز يقـين عواجـيز النّوبـة. مـا يكتبـه الجورنـال بـين سـطورِه ينعكـسُ وبـالًا عـلى صبَـاح السُّـودانيين.

مُنـذُ مـتى وهـذا النُّـوبي يُـلازم أبوابهـم؟ عِندمـا أتأمـل سُـمرَته المضمخِلّـة بتطـاوُل الأيّـام ولَسْـع الرُّطوبـة، تنتابُـني هواجِـس الغريـب فأخـشى عـلى نفـسي مِـن مِثـل ذاك الحّـظ.

٤ قادر.
٥ يرزُقَك.

وفـد عَـمر عبـدُه إلى المنيـل في عهـدِ اللـواء محمّـد نجيـب. لـه بقايـا أهـل في «تُمُبـس»، تلـك الجزيـرة الصخريـة الـتي تجـاوِر الشـلّال الثالـث في دِيـار المَحَـسْ. خـرجَ عـم عبـدُه ولـمْ يعُـد. حالُـه كحـال النُّوبيـين بـين هِجـرةٍ وهجِـير. حالـه مِـن حـال نَـبيٍّ قُـذِفَ في تابـوتٍ أُلقِـيَ في بحـرٍ، فلفَظـه مـوجُ البحـر عـلى سـاحِلٍ كي يترغّـدَ هُنـاكَ بـينَ يَـدي طاغِيـة.. إيـهٍ مـن أقـدار النُّوبـة مـع النيـل والرّحيـل!

- إنت شُفتَ تِمثال «أُقْجَنْدِي»[٦]؟

- وده اسـمه كلام يـا عـمّ عبـدُه؟ البلـد دِيـك أنـا حايمهـا «كُـراع كِلِـبْ» مِـن كرمـة حـتى سُـقدان، إلى مَشَـكيلة، حـتى أردُوّان.. كل تلـك الطّرابيـل، عبرتُهـا شِـبرًا شِـبرا.

راقَ بـين عينيـه بهـرِج شـوقٍ آثـرتُ أن أُهدْهِـده بتراتيـل الادِّعـاء فقلـتُ: أنـا مَـن لسَـعتني سَـموم الجِبـال الـتي تسـكنها الغربـان. أنـا روح قافِلـةٍ غرِقـت في الرِمـال. أنـا مَطمـوس ملِيـكات الجـن الـلائي يتبرّجـنَ في الصَّيـف مـع أفـول القمـر!

اتّكأ عـمّ عبـدُه عـلى مسـنده البـالي.. ابتسـم كأنّـه يتذكّـر، ثـمَّ قلَـبَ يـده اليـسرى في الهـواء متسـائِلًا: إنـتَ إيـه؟

عنـد مدخـل العمـارة كانَ يهِـب لتحيَّـتي بنِصـف قومـة. بعـدَ الـذي حـدثَ تغـيّرَت عوائِـده. بعـدَ الـذي حـدثَ أصبحَ يُشـيحُ

٦ الفحـل هـو إلـه الخصـب عنـد النوبـة.. يُقـال أحـد الغُـلاة كـسرَ «عضـو» التمثـال المُشـار إليـه، لأن النسـاء كُـنَّ يتمسّـحن فيـه طلبـاً للإنجـاب..

بوجهـه، كأنّـه يهُـشُّ ذبابًـا.

اسـتأجرنا شِـقّة تتناثـرُ فـوق حِيطانهـا أزاهـير تكـبُر وتذبُـل في اللّحظـات الحاسِـمة. الخَطَفـاتُ الحميمـة تعلَـقُ في الذهـنِ، وشيءٌ مـا في حـواف الأسِرّةِ يُغـرِي بالتّعـرِّي.

جلسـتُ إلى جانبـه.. أعطيتـه سِـيجارة، اللهُ أعلـم بلونِهـا وبمُـرادي.. كانـت سـبابِيُها قـد شَـغَلتِني.. في تلـك اللّحظـة طافت بذهـني ركائـب «التّشاشِـيّات» كأنهـنّ أوراق حلـوى في يـومَ عِيـد.

- من هذه المرأة المُتغلمِنة يا عمْ عبدُه؟

- حِسّك عينك يا ولَدي..

يـا أللّه، لمجـرّد أنـني دندنـت معـه «القمـرْ بوبَـا» يُحيطـني هـذا النّـوبي بأُبوَّتِـه ويُعلـن خوفـه عـليَّ مـن تلـك الكابوريـا؟

- ما تخافشْ يا عمّ عبدُه، أنا زول مُدردَح.

- يعني إيه، مِشْ فاهِم؟

- أنت الآنَ تُحادِث آخر النّاجينَ من المِحرَقة.

- مِحرقـة إيـه وناجـين إيـه، إنـت حتعمـل لي فيهـا بتـوع نِضـال ومُقاوَمـة؟

تذكـرت عـمّ عبـدُه عِندمـا اعتُقِـل «كارلـوس» في الخرطـوم. كُنـتُ في بنغـازي أُسـاكِنُ لفيفًـا مـن الميكانيكيـة وكانـت جُـلّ

مؤانساتهم عن السّرِيندلات والبوبينات والمقنيتات وعمود طوّالي.. في تلك الأيّام لم تكن أجهزة الرّشح قد تكاثرت.

بحرُ الصّيف في بنغازي -مدينة الثورة- يُرسِلُ آهاتٍ فاترة: غرْشْ غشْ، رَشْ أشْ.. الحنينُ الذي في الجوف يسوقني إلى بلدي، إلى جزيرة «تنْقَسِي».

حين وصل «الدِّشْ» إلى الحِلّة عقدَ أهلي اجتماعًا أضافوا خلاله تكليفًا آخرَ لرئيس اللجنة الشعبية. تقبّلَ عِتْمَان التكليفَ مؤكِّدًا أنّ المناصب ليست تشريفًا، وأنهم كدُعاة، جاءوا من أجل حِماية العقيدة وإنقاذ الوطن.

كانَ التكليف مُحددًا لولا أن عِتْمَان قام بتجييره لمصلحة النِّظام. يتلخّص التكليف في تشغيل التلفزيون، وأن يبْقَى عَشرَة على «الرِّيموت»، لا يدعه يدخُل في يد كائنٍ من كان، لأنَ «الثورة مُستهدفة من المُعارضة التي تبغِي الفساد في الأرض».. هكذا كان خِطاب النِّظام الذي حَكَمنَا باسم الدِّين، إلى يومَ الدِّين.

بذلك التفويض أصبح غريمي هو كل شيء في الحِلّة.. هو من يخطُب في يوم الجُمعة ويصلِّي بالنّاس.. هو مَن يجمع الزَّكوات والضرائب. هو مَن يدوِّر وابور «اللّسْتَر» ليضيء الحِلّة بعدَ المغيب وحتى العاشرة والنِّصف مساء.

ولما كان قرار تسليم الجهاز اللّاقِط لمندوب السُّلطة يُهابِشُني في اللّحم الحي، فقد قررت أن أستقوِي ضِدّه بشلّة

الكوتشينة، إذ لا يعقل أن أندَرِج في سِنيني الحَرِجة بينَ حفظة الجلالات الذين يتأملونَ في تطبيق العسْكر لِمَحجّة السّماء.

هكذا فُرِزت الكيمان. الرِّفاقُ وأنا فوق تربيزة «الحريق» والقومُ تحت إمرة عِثْمَان.. سارت الأُمور وفق أهواء الشيخ الذي كانَ في عهد التمكين أرفع شأوًا مِن «الزّنْزون»[٧] وأعلى مقامًا مِن «رشيدي يَكيني»!

بعد تمليك الرِّيموت لِعِثْمَان بقليل، آبَ أحد أبناء الحِلّة المغتربين. كان المُغترب حتى ذلك العهد يُشار إليه بالبَنان، وكانَ أهلي يحبون الكرامات. بعد الوليمة التي جمعتنا ترحيبًا به، نصَبَ له عِثْمَان كُرسيًّا وثيرًا في النادي. المجاهِدون والأعيان غالِبًا ما يتقدّمونَ الرّكب لمشاهدة «ساحات الفِداء».

جلس المغترب على كُرسيه، وتقرفَص بعض القوم فوق «السّبَاتة» ونحنُ -الرِّفاق- مع الورَق. بدأ عِثْمَان في تقليب قنوات البث. كان لا ينتقي من البرامج إلا ما يخالف الذائِقة ويُنفِّر المُشاهِدين.. عِثْمَان لا يختارَ من زخم الأثير إلا ما يُعكِّر المزاج ويُقلِق راحة البال. مرّةً يجلِب لهم صُوّرَ صحارى وقوارِضَ وسيول، وتارةً يختار لهُم برنامِجًا عن تردّي البيئة واتِّساع ثُقب الأوزون، أو ينتقي أفلامًا مِن القرن الماضي لحروب وكوارِث دارت رحاها في مجاهِل أمريكا اللّاتِينية، أو

٧ «الزنزون» لاعِب مغربي سُجِّل لفريق المريخ عام ٢٠٠٢.. «رشيدي يكيني» مهاجم المنتخب النيجيري لكرة القدم.

جفافًـا ضربَ بلدانًـا في إفريقيـا، أو مجاعـات حصـدت شـعوبًا، أو غـيرَ ذلـك ممّـا يُعـادي الأذواق ويُناقِـض الجمـال.

كان «لا يَعَـتَرْ»[٨] عـلى نـشرة أخبـار في قنـاة تلفزيونيـة مُحترمـة، أو حفـل غِنـاء لمادونـا، أو لقـاء مـع أدونيـس، إلّا وقلـبَ الموجـة، وأي «حِصّـة فاضيـة» مِـن الحِصـص المذكـورة أعـلاه -والريِّمـوت مِلـك يمينـه- كان يسـتبدل بهـا حِصّـة دِيـن!

أثارَ ذاك الوضع آلامَ من يفترشون الأرض..

المغـترب الـذي اكتسـب في خليجِيّاتـه محبّـةَ أفـلام الأكشَـنْ وحفـلات «الرّبـة»، فاجأنـا بـكلام ديمقراطـي لـم تعهـده بِلادنـا منـذُ ركـوب هـؤلاء عـلى صهـوات خيـل الله.. قـال موجهًـا حديثـه لِعِتْمَـان:

- يا زول، إنت ما عندك لينا غير الخَبوبْ ده؟

كان عِتْمَـان سـاعتها قـد اسـتقر رأيـه أن يُـرِيَ مشـاهِديه فيلمًـا عـن ملاقحـة ملِكـة النّحـل لعشـيقها.

ولأول مـرة في حيـاتي أرى عِتْمـان يُبـدِي تعاونًـا. هـذا المخلـوق أعرفـه مُنـذ الصِّبـا.. كانَ في سـاعة الفطـور بالمدرسـة يتباهـى بقِطـع الزّلابيـة!

هـذا «الكـوز» أعرفـه جيِّـدًا. كان كثيـرًا مـا يتعقّبـني تحـت قيـف

٨ يعثِّر.

البَحَـر ليسـحب صِنـارَتي مِـن المـاء و«يَمولِـصْ»[٩] مـا وقـع في خيطِهـا مـن حيتـان. الـزول قريـبي لَـزمْ، لكنـه بـارِعٌ في الإضرار بالـزّرع والـضّرع.. في صِبانـا الباكِـر كنّـا نُداهِـم معًـا جـروف العجّـور والطّماطِـم، فيُفاجئـني بأنـه يـدُس في جيبـه كيسًـا مِـن «الدّقوقـة» لتمليـح المـسروق!

كان المغـترب مُطاعًـا، وكنّـا نحـنُ بقايـا يَسَـارٍ بَـذِيءٍ ومَلعـون في المحافـل الرسـمية، لكـن هـا هـو السّـبيط يُلقِـي ثمـره، ولسـوفَ «نَلـوك بِجـاهِ المُلـوك»!

مـع بـدء المفاضَلـة، أوقفنـا -نحـن الرِّفـاق- لعـب الكُوتشـينة.. كان المغـترب يُغالِـب عِتْمَـان:

- يـا زول، السَّـما دا مليـان مسلسـلات وأفـلام، دَحـين شـوُف لينـا حاجـة معقولـة كِـدا، خلّينـا نعـرِف الحاصِـل في الدُّنيـا دي.

ولكأنّهـا لحظـة اسـتجابة في هـذه القريـة لـم تشـهد منعطفًـا تاريخيًّـا كهـذا، منـذُ حملـة اللّـورد كِتشِـنر الـتي ابتلعهـا جـوف السـودان في نهايـات القـرن التاسـع عـشر.

أذعـنَ عِتْمَـان لرغبـة المُغـترِب، فانتقلنـا مـن حالـة الاسـتنفار والتهليـل والتّكبـير، إلى بـلاد الفِينيـق حيـثُ «بَنَـات المِيطـي» ذوات الأكْحـال والدِّيـس المنسـاب والـورود الـتي في الصـدور.

لـبّى عِتْمَـان -ربمـا لأول مـرّة- مطلبًـا جماهيريًّـا. ثبَّـتَ لهـم فيلمًـا

---

٩ يسلُب.

باذِخًـا في إحـدى القنـوات المُهاجِـرة ثـمَّ دسَّ العُهـدةَ في جيبـه وذهَـبَ لشـأنه الطبيعـي، أو ربمـا وَلَـج إلى غرفـة وابور «اللّسْـتر» لضبـط مِـيزان الجـاز.

و، و، ببـطءٍ عجـولٍ تداعـت الفـوضى ودخـلَ الفِيلـم «في الغَرِيـقْ» عندمـا بـدأ الأبطـال عمليـات التحلُّـل مـن الأزيـاء بأشـكالها وألوانهـا كافـة!

كنـا -نحـن الرّفـاق- نرقـب الموقـف مـن تربـيزة «الحريـق». كُنـا نلحـظُ مـن أهـل «السّـبَاتة» وحْوَحـةً مكتومـة وتكْتَـكات ضَحِـك، و كان أكثرهـم عزمًـا يُمعـنُ في التـأدُّب وينـادي: يـا عِتْمَـان تعـال، تعـال وقّـف الدّاهِـي دا!

حـين عـادَ كانَ النّجـوم يلملمـون شـظاياهم، بعـد خـراب مالطـة!

فيلـم بنـات الفِينيـق قَلـبَ حيـاة الحِلّـة رأسًـا عـلى عقِـب. عقـدَ القـوم اجتماعًـا لإنقـاذ الموقـف.. لـم يسـحبوا جهـاز الريمـوت مِـن عِتْمَـان كمـا هـو مُتوقّـع، لكنّهـم قـرروا منعنـا مِـن لعِـب الكوتشـينة، لأن ضحكاتنـا سـاعتها كانـت عالِيـة الضّجيـج.

عِندمـا ودّعـتُ عمـي الفاضِـل للمـرة الأخـيرةِ في المحطّـة العاشرة بأُمبـدّة أُمدُرْمَـان، سـألني ابنـه وقـد كانَ صديقي:

- هل أنت موقنٌ أنه موجودٌ في القاهرة؟

- في جيـبي تذكـرة عـلى الباخـرة «سَـاق النّعـام». سـأركبُ البحـرَ

حتى أسوان. سأقوم بالتسطيح على قطار حلفا، وإذا داهمَني الكُمساري بعد محطة «أبو حمد» فلن يجد شُرطةً يسجنني بها في تلك العتامِير. سيتجرّع الصبر حتى أبلغ منتهاي في دِغيم.. في مِصرَ سأبيعهم قواريط التسالي وحبوب «الجون» وشاي «زَهرة الشَّمس» ثمّ أركب قطار الصّعيد نحوَ مُنيتي.

كُنا أصدقاء.. تشاكسنا بعد سَريان الكأس الأخيرة في جوف الليلِ وافترقنا.

قبيل وداعنا أعادَ عليّ السؤال:

مِن أين يأتي اليقين؟

هدأة ليل الحزانى تُغري بالسهر والغرباء مساطيل، من لا يَلُفّها عيانًا فلسوفَ يُصْقَع بـ«كَبَريتْ» أُم حِميدان.. تلك القُرعانية خزرجية الأنف هي صاحِبة المطعم البلدي في سوق الجنسية السودانية ببنغازي.

يقولون إن الأوس والخزرج هم بعض هِجراتٍ وفِدت من هُنا..

الخزرجيةُ تأتي في الليل.

عطرها يَهتُف أنّها في الطّريق.

عندما تجلس لجرد حسابها مع العاملين بالمقهى يختمرُ دُخانها فوقَ المناضِد.

امرأةُ مثل الرِّهاب.

كأنّها خط الوهم الفاصل بين السّاحِل والصحراء. ثوبها المربوط في خاصِرتها لا يخلو من فُقاعات النّدَى. شعرُها «كُوكّي».[١٠] لِماها سودَاوان وسَاقاها يعتكِران بألوان الطّلح..

ثم ماذا بعد؟

ماذا بعد طنْطنة الرّيح؟

١٠ أحمر فاحِم.

٢

وجـوه السّـمراوات في شـارع ٢٦ يوليـو تجـولُ وتجـول، مـن ميـدان العَتَبَـة إلى شـارع قـصر النيـل إلى باحـة التحريـر. كنـتُ أسـوحُ في أثوابِهِـنّ وأعـودُ أدْراجـي.

شـوارع وسـط البلـد لا تخلـو مِـن القِطـط والغربـاء، وبـين يـومٍ وآخـر تخـرُج جِنـازة أحـد المشـاهير مـن جامِـع عُمـر مكـرم، وليـلٌ وراء ليـل وأنـا أتصفّـح جريـدة «الأهـالي»، لَعـلَّ اشـتراكية الكفـاف تُـشرِقُ بـين السـطور.

شـغَفتْني المـزاراتُ والأضرِحـة و، و، والمؤخِّـرات الثقافيـة الـتي تسُـد منافِـذَ الوعـي.

علّقـتُ في عَضَـدي حِجابًـا لتلطيـف غائلـة العـذارى.. كنـت أسـترِقُ الرؤيـة بـين الضَّبـاب فتُرعبـني حجـارة المُقطَّـم، تلـك الحِجـارة حـين يجرفهـا السّـيل فإنهـا لـن تتوقـف إلا في قـصر القُبّـة.

بعـد سـنوات مـن ذاك المِخيـال تزحلَـقَ سُـلطان «الريِّـس»

الفِرْعَـون مثلمـا تقطّـمَ وتزحـزَحَ هـذا الجبـل بنـداءٍ غامِـضٍ مِـن سـيِّدي «سَـمعان الخـرّاز».

شيء مـا يختـبئُ في مباخِـر الشّـعب لا يُدركـه الحُـكّام. كاتدرائيات الجماهـير فيهـا الكثـير ممّا تـركَ آل داود..

عِنـد منفـذ «السـلّوم» يقـوم آخِـر تـلٍّ لحضـارة وادي النّيـل، وقلـبي لـم يطاوعـني بالرحيـل..

ودّعتُ خالد شهاوي في «سانت فاتيما».

كان مظهـره مُضلِّـلًا. عينـاه الزائِغَتـان تُذكرانـني بحمـلات النِّظـام العـام عـلى «زُقـاق أبـو صَليـب».. قطعنـا المشـوار الأخـير في علاقتنـا رَاجِلـيْن.. تركتـه لدُنيـاه. دُنيـا مـن أفخـاذ وقَـزَاز، وتبـغٍ خانـقٍ يُدعـى «كليوباتـرا».

لـن يعـدَمَ مـن يُقايضـه مَطـارًا. سـيجدُ ضَالتـه في جحافـل العابِريـن. سـوف يسـتأجِر لهـم مهابِـطَ يفعـلُ فيهـا مـا يشـاء.

الدنيـا في مَنْفـذ «السـلّوم» ثلاثـة ألـوان: زرقـة البحـر واصفِـرارُ الرّمـل، وسِـحنَتي الـتي غبّشـها الوَجيـبُ.

دخلـتُ القاهِـرة عندمـا كان تجمُّـع المُعارضـة السـودانية يحـط رحالـه فيهـا. كانَ «الريِّـس» حينذاك يفتتـحُ مصنعًـا في الصعيد.. سـمعته يقـول عـلى شاشـة التِلفـاز إن تِعـداد السـودانيين في مـصرَ يتجـاوز ثلاثـة ملايـين.

في تلك الأيّام كان الكَوايتة يحتفلونَ بذكرى تحرير «المحافظة التاسعة عشرة» كما ظنّها «الصّدَادِمة». في تلك الأيام كانت علاقة الخرطوم مع القاهِرة قد تعمّقت في الانحدار.. تركتُ كلّ ذلك ورائِي بما فيه «كابوريا». بما فيه من كلام الليل الذي يمحوه النهار.. العلاقة بين مِصر والسودان مثل حكايات «توم آند جيري» وأنا من يدفعُ الثمن.

عند مدخل الغروب شَدَهتني لافتة خضراء مكتوبٌ عليها بالبونط العريض: الدّجاجةُ تبِيضْ، الدِّينارُ لا يَبِيضْ. ذاك عنوانٌ لعصر الجماهير، وهذا «الجو جَو فُول».. الماءُ كثيرٌ هنا، لكنه مثل الكلام المُرّ.. هذا الوَعَر يحتَوي أُمنَيات وأسيّات، وهاتيك الرّمالُ كما البشر، تخبئُ أسرارها وتُكشِّرُ عن أنيابِها.

تحت ذاك التّبَس ترقُدُ ألغام الاتفاقيات التي مُهرت في سوانح السِلْم.. لا محفلَ في الطريق إلا محطّات السفر.. المهاربُ تمتلئ وتفرغُ والكفاح الثوري مُستمِر، وها هو القائِد قد أنجزَ وعدَه وطاردَ شعبَه وواجه النّاتو وحده!

وقفتُ عند مرفأ النّظرية. لا زادَ لي ولا مال. سأستبدلُ عند هذا الحدّ لساني وأقولُ ما تقول المَفاتِيح: الله غالِبْ.

النساء اللائي تسكّعن في ذاكرتي عند «باب اللّوق» تبخّرنَ كما تبخرَ النَّشامى بين دواعش دولة الخِلافة.. الشاطئ مُتْرَعٌ مثلَ ليل الخندَريس وأُنثى الجماهيرية كظلٍّ في العتمة.

كان لي وطنٌ لكن الشّيخ أبى. ضاع الشبابُ بيدَ أني بَقيتُ على قيد الحياة. سمعتُ خبرًا أُذيع على «راديو دوتشفيلي» أن دُقشةً من أرواح الطّلبة صعدت إلى بارئها في معسكر للتدريب بِضاحِية «العليفون».. أرواح الغرباء تتعمّدُ بالدمعِ واللِّجانُ الثورية تفعل ما تشَاء.. في «مِصراتة» أحرقَ الزّحفُ الثوري سُوق التَّوانسة. قِيلَ ساعَتها أنّ ليبيا امتلأت بالخانِبين والمهاجرين و«الكِلاب الضّالّة».[11]

الحكّامُ في وطني لن يتخلّوا عن السُّلطة إذ كانوا يهتفون: هي لله هي لله... إذا ضايقهم كائن الله الضعيف -الفيسبوك- كما فعلَ مع الفِرعون، فسيحرقون البلد.

رياحُ الأيام لم تترُك سِيد أحمد يهنأ بليالي المولاص في الجزيرة، رغمَ أن بِتْ مَحَبوبَة، كانت تحجِز له الرُّكن والبنْبَرْ، وتقول بنبرةٍ حاسِمة لرواد بيتها: هووي دَا محلْ «السّنْجَكْ»!

مع تمدُّد الخصخصة في مؤسسات القطاع العام، عرِف «السّنْجَكْ» أن المقام لن يطيب له في صعيد الله والرسول، كما كان يسمي تلك النواحي.

منذ البعْبَصة الأولى للثورة، أصبح «السّنْجَكْ» كثير الهذيان:

- البلد بِقتْ مِقَحِّطي، الله يسنحْ السِّناجِي السوّاها فينا!

كانَ يكتفي بهذا المستوى من الدعاء ضد النظام، لكون

١١ «الكِلاب الضّالّة» يُقصَد بهم الإخوان المسلمين في دعاية «ثورة الفاتح».

المتوجسين من عرب الجزيرة يتهيّبونَ نقد الحزب الحاكم بشَتْمِ سَناجِكه.

كان سِيد أحمد يسخر من أوضاعه المعيشية بعد اعتماد النِّظام لسياسة الخصخصة ويقول إن الفَلَس «مُصَنْقِرْ فوق ضَهَرو زي لّسْتِكْ الإسبير»!

وهو في ذاك الحال وصلته رسالة شفاهية من أمّه مع إحدى الشايقيات. سَعت نحوه بين رجال السوق، وقالت:

- «سِيد أحمأ»، أُمّكْ خَجِيجِي قالتْ لَكْ: الأصبع اليّابِسْ ما بيتلَحِسْ !

أهملَ الرّد عليها وقد فهم مضمون الرسالة، لكنه وسْوسَ بنبرة مَن يُحدث نفسه: زمن واللهِ زمن.. رعيناها زَمَن مِخَدِّرِي.. يا ربِّي الحال دَا بينصلِح تَاني، ولا أخيرْ نرجَعْ «كَريمِي»؟

لم يمر شهر على ذلك البَث المباشر حتى جاءت شايقية أخرى مِن البَلَد. كانت قاهرة وشيّالة حال ولا تعرف الاختِشاء.. وصلت إليه عند بِتْ محبوبة، صاحبة أشهر محل بَقَنِيّة في كمبو المحالِج.. قالت له بين المُترَعين:

- آآمايل الرُّجال، خَجِيجي قالتْ لكْ، إتْ مَاكْ عَارِفْ أمر الشّاي صَعِيب؟

رد عليها وهو يأخذ تكويعته الكامِلة في جناحه الخاص داخِل

البيت:

- قوليلا إنِّي مَاكْ عَارفي، المَسَانيح ديل، بَاعوا السِّنَاحِي دَا؟

وأضافَ:

- نَان أجيبْ لَهَا من وين؟ الشّغَلانِي مِي جَاتْ زانقِي من ورا!

رشَـفَ «السّـنْجَكْ» عبّـارًا مـن الجـرْدَل الـذي أمامـه وقـال متضجِّـرًا مِـن زائِرتـه الـتي ربمـا كانـت تنتظـر منـه «حـقّ اللّـبن»:

- امرقي من فوقي، لا تغُزِّي كيعانِك فوقي، تشرَبِي دَمِّي..

وأضاف:

- قُوليلا كاتْلِي كاتْلِي، بي شوية التِّميرْ لامِنْ ربَّنا يفرِجا..

سـمعت بِـتْ مَحَبوبَـة عبـارة التِّمـير -البلـح- عـلى لسـانه، فتدخلـت في الحـوار:

- «السّـنْجَكْ» يـا جعـان، إنـت عنـدك التّمُـر، ويـوم مـن ذات الأيـام مـا ضوَّقْتَنـا منـو؟

صفقَ سيد أحمد يديه، وقال:

- يـا خَرابـة «فِـه تمُـر بياكلوهـو»؟[١٢] وَحَـاتْ سِـيدي الحَسَـن أنـا في البلـد عِنـدي أكـتر مـن مِيَّـة عُـودْ، ومـا حصـلْ دخَّلْـتَ مِنُّـو حَبّـة في خِشْـيمي ده.

١٢ يعني أن التمر يُزرع في ديار الشايقية ليُصنع منه الشراب..

تغـيّرت الأحـوال وتطاولـت اسـتثمارات التنظيم وبِيعَـتْ غالبية مؤسسـات القطـاع العـام. ضاقـت الحيـاة عـلى «السّـنْجَكْ» حـتى شُـوهِدَ في بيـت البَقَنِيّـة كثـير التَّذلُـل:

- ضيَّقوها علينا، تضيق عليهم الوَسِيعي..

عندمـا يـأتي في اللّيَـالي الظليمـة فـارغ الجيـوب كانَ يكـرُش أصابعـه ويقـول لبِـتْ مَحَبوبَـة:

- الليلي «أهنْ دي، أهنْ دي ما عِنْدِي».[١٣]

- «السّنْجَكْ» يا غبْيان، أنا وَالداكْ ونَاسْيَاكْ؟

- اسكتِي شَخْبِتي في الحيطة لامِنْ تجي التعويضات.

وتكتب سِت البيت حساب الشّرْبَة في الحيطة.

ضاقَ الحَال أكثر، وبِتْ مَحَبوبَة هي الأخرى بدأت تتذمّر:

- «السّـنْجَكْ» يـا مايـل الرجـال، الحيطـة دي بعديـن، بتبقـى راجـلًا تليِّسَـا؟

ويرُد عليها سيد أحمد:

- آآخرابة، لِياسْ شنو؟ إنتي دَايري تَشْطُبِي الدّفتر العُمومي؟

في ليلـة مـن ذات اللّيَـالي جـاءت بِـتْ مَحَبوبَـة غاضبـة. وقفـت فـوق «السّـنْجَكْ»، وقالـت:

١٣ لا أملك شيئًا.

- هووي يَا راجل هووي، قوم أدّيني حقِّي.

أسند «السّنجَكْ» ظهره إلى الحائط، وقال:

- هَجمْتِيـنِي، قَطعْـتي قلـبي، الله يقْطـع قلبِـكْ.. إتّي مَـاكْ عَـارفي المَسَـانيحْ ديـل بَاعـوا المحالِـج والبَـالات، و«مـا خلّـوا دِي، مـا خلّـوا دِي»؟

وبينمـا كان «السّـنجَكْ» يهـرِش أظافـره بأسـنانه، فوجـئ بهـا تُحـاصِره:

- تقصُدْ شُنو، قول ليّ؟ المسَانِيحْ ديل مُنو؟

هُنـا عـرِف أن بِـتْ مَحبوبَـة «اللّيـلِي مـا بَرَاهـا»[١٤] فقـد كانـت صَارِمـة القَسَـمات وأبعـد مـا تكـون عـن الهِـزار والانتظـار.

- «السّـنْجَكْ» هـووي، أنـا دايـرة حقـي هسّـه، اللّيلَـة تديـني ليهـو.

- اللّيلِي، اللّيلِي؟

- هسّه تقوُم تدّينِي حَقِّي.

- نَانْ يَا خَرَابة، أجيبْ لِكْ مِن وَينْ؟

- مَـا بعـرِفْ، أكان مـا أديتـني حقّـي بكـورِك وأفـرِّجْ فيـك نَـاس الكمْبـو.

---

١٤ على غير العادة.

- كَدا قولي بِاسمِ الله. ناس الكمْبو، ما في واحد فيهُنْ صَرَفْ.

ولفَحت بِتْ مَحَبوبَة ثوبها وخرجت إلى الشارع.. كشفت عن رأسها، وبدأت السّكْلَبة، و«السّنْجَكْ» وراءها يصيح:

- ادخلِي لِي جُوّا، ادخلِي.. ادخلِي، تدخُل فيكي الدَّخلتْ في الكَنابِي.

وبِتْ مَحَبوبَة تكورِكْ:

- ما بدخُلْ وما بدخُلْ، أنا دايرة حقِّي.

- ...!

- شكيتك على الله يا السّنجَكْ. حقْ مَريستِي دا أشيلُو مِنَّكْ يوم القيامة، يوم الخلايِق واقفِينْ صُفوف.

ولم يكن مثل ذلك الخِطاب يفتّ في عَضد «السّنجَكْ»، إذْ قال لبِتْ مَحَبوبَة مُستخدمًا كلّ جموع التكسير في لغة الشوايقة:

- عليكِي أمان الله في اليوم دَاكْ، تلحَقِي لامِنْ تَجيبي سيرة المَريسِي في طَرَف خشْمِكْ، إلا بِتْفرجوا فيكِي خلايِقْ يوم القِيامة، إنِسْ وجِنْ، إنِسْ وجِنْ، إنِسْ وجِنْ!

وظلَّ يُرددها، حتَى حَالَ بينَهما الظَّلام.

٣

هـذا الليـلُ حزيـن، وأنـا غريـب، وغُصّـة فـراق القاهـرة لـم تفـارق حلقـي.

القاهـرة مدينـة طاعَمـة مثـل قنـدول عيـش. القاهـرة كما الدنيا، تدخلهـا باكِيًـا وتفارقهـا بالعويل.

هـذا قطـار حلفـا يحتشـد بالمسـافرين. أُنـثى خِلاسـية ذاتَ عكـش يُرفـرِفُ ثوبهـا بـين الجراجـير. نسـاءٌ أعجميـات في هيئـة «داعِـش» يتقرفصـنَ كالمسـتحيل في مقاعـد الدرجـة الثالثـة.. في حجورهـن وِلْـدان وصَبَايَـا، وفي هـذا الطريـق ينتظـرني غبـارٌ وغربـةٌ ودنيـا مـن الرطانـة.

أيُّ بلاد الله تؤويكَ وأنتَ بمثلِ هذا الجُرح؟

ذاك الأصلـع النّشِـط هـو كُمسـاري القِطـار. هـا هـوَ يـضْرعُ الكـراسي ويوقـظ النُّعـاس ويقطـع إيصـالات الغرامـة للمخالفين. شُـلوخه السّـادة تُنبيـكَ عـن اسـتعرابه. هندامـه يُوحـي بأنـه تماثَـلَ بمحَجّتـه الحمـراء مِـن مَحلِّيتـه ضَاربـة الجـذور. يبـدو

مـن سـيجاره ومِـن إطـار نظّارتـه السّـميك أنـني التقيتـه في مـكانٍ مـا مِـن مخـابئ خرطـوم الـتُّرك.

محطـة السـكة الحديـد بالخرطـوم تـئز بالصُّنـاح وأنفـاس النّيـم.. هـل باعوهـا الآنَ؟

شقشـقَ الفجـرُ وغـدت الطُّيـور مـن أوكارِهـا وأنـا لـم أشرب قهـوتي. قـرأتُ عـلى بـاب القَمَـرة تعاويـذ حفظتهـا عـن جَـدّي. اسـتحضرت روحًـا قديمًـا كي تُفتَـح لي كُـوَّة نحـوَ هاتيـك النُّسـوة ذوات السّـواد.

قـال جَـدّي أن «المتّـوكي» الـذي يُهاجـر مـن الصعيـد إلى بـرّ السـودان غالِبًـا مـا يكـون رقيـق الدِّيـن.. حـين ذكّرتُـه بالشـيخ إدريـس ود الأربـاب -المَحسـي المـا كضَّـاب- تهلّـلَ وجهـه وقـالَ إن ودْ الأربَـاب هـو أكـبر أوليـاء السـودان. التَّقـوى في القلـوب يـا مـولاي، ومـا أحتـاج إليـه الآن هـو إذنٌ بالسّـفر.

تعاويـذِي صَعَـدت.. تعاويـذِي شـقّت طريقهـا نحـو قمـرة النسـاء. «الرّطَانـة» الـتي لـن أفهمهـا، سـتكون حجابًـا حاجِـزًا بيـني وبـينَ العيـون الـتي تُبـدِي شررًا. أعلـمُ أني غـير مرغـوب هُنـا أو هُنـاك، لكـنّ القطـارَ كانَ قـد نفـثَ دخاخينـه وبعـدَ هُنيهـة يعـبر كوبـري الجيـش وينفُـخ في الصّحـراء.

هـذا القضيـب الحديـدي كان نابضًـا بالحيـاة منـذ بدايـات القـرن العشريـن. مـن نافـذة القطـار رأيـتُ اصطفـاف الجنـد داخـل الثّكَنـات. لا مـكانَ لي في هـذه البـلاد.. لقـد تَلَحَّـى

العسـكر وطُهِّـرت الخدمـة المدنيـة، وداخليّـات البَرَكـس الـتي آوت حُكّامنـا أيـامَ عوَزِهِـم تبـدو مثـلَ شَراريـمَ قـرًى غَارِقـة.

قِطـار «حلفـا» أشـبه بمسـتعمرة افتراضيـة تتبـع لدولـة النوبـة العُليـا. تحـت عمـود الصّنفـور رأيـتُ نوبيّـة في لـون الخمـر. شـعرُها ينسـدلُ فتزيحـه عـن عينيهـا ولا يهـدأ. تلـوِّحُ بيدِهـا وتمسـحُ دمعًـا بالأُخـرى. هـي المدينـةُ تُبـدي مفاتِنًـا سـاعةَ الرّحيـل.

هل بين هؤلاء السَّادة الجُدُد من بَاتَ سكران وأهله جِياع؟

هل بين شعوب النوبة من لا يأكل «أُم فِتْفِتْ»؟

الخرطـوم -المدينـةُ العطْشى- وتلـكَ الأنهـارُ تجـري مِـن تحتها.. الخرطـوم أخـذت زُخرُفها مـن ألـوان المجَروس. الشـيخ يُضاحِك مُجاهديـه. يُمنّيهـم بالحـور العـين ويُحدِّثهـم عـن عادِيـات دول الاسـتكبار، ومصنـع كِنانـة يُنتِـج آلاف الأطنـان مِـن السُّـكر الـذي يـذوب في جيـبِ غَريـر!

مُجنّـدونَ شـاحبونَ كأعـواد الخـيزران يركضـونَ ويتصايحـون في جنبـات الشّـارع: للجنـوب طـوّالي للجنـوب طـوّالي، وأنـا هـاربٌ بجِلـدي نحـو أي بلـدٍ حَنـون.

ربّي يحـاولُ كل حـينٍ اسـتغلال حاجـتي إلى العمـل.. قُلـت «أجِيهـو مِـن الآخِـر»[١٥] حـتى لا يُثقِـل كَاهِـلي بمهـام أخـرى، أو

١٥ أقول له آخر ما عِندي.

يبلُـغَ بي مبلغًـا يُضيـفُ فيـه رَهَقـي إلى مِـيزان حسَـنَاتي:

- آنِي نِبّوكْ[١٦] تِبيع الخُبز وتِحِسبْ الجُوّالات.

- بَاهِي، بَاهِي.

- نِبّوكْ تَصُبْ الوَقود في الخزّانْ وتِنظِّف الكُوشَة.

-الكُوشَة؟

-إيه، ما تِعرفْشِ الكُوشَة؟

- كيف يا زول؟ أعرِفها زَي جُوع بَطني.

- وتِبَنْشِرْ لَساتِك السيّارة، عِرِفتْ عليْ؟

- عَرِفت..

- والله أنت لَسوداني بَاهي.

- شكرًا.

- آنِي نِبـوكْ تِفْتَـح المخـزن وتـوزِّع الأغـراضْ، بيـشْ يِشـتغلوا العمّـال.

- حاضِر.

- نِبّوكْ، نِبّوكْ، نِبّوكْ..

---

١٦ أطلب منك.

طنطنتُ -في سري طبعًا- حتى لا أفقِد الوظيفة التي حصُلت عليها بعد «سَل الرّوح».. قلت له:

- كُلْ الشُغُلْ دا، تَدّيني فِيهو كَمْ؟

- أعْطِيك مئة دِينَار كل شهر.

- يعني ما يُعادِل أربعة جنيهات سودانية في اليوم.. ما تخافْ الله؟

- قُلت أنا أعْطِيك مئة دِينَار لِيبي، مُو سوداني، عَرَفت عليّ؟

استعدلتُ لِساني وقلت:

- بَاهِي، بَاهِي.. هل هناك شيء آخر؟

- والله يا سوداني، إنتَ تِحكِي عربى مِلِيحْ.

- آه، والمطلوب منّي شنو؟

- بعد ما تِخلّصْ شُغلك في الكُوشَة، نِبّوك تِشرح لوِليدي دروسَه.

- الكُوشة؟

- إيه الكُوشَة، ليش تِسألْ؟

- بَسيطة!

- أنتم السّوَادنة مُتْعَلِّمين.

- قلت كَدِي؟ عَدِيلة تَبْ.

- أنتم شعب محظوظ، بسّ ما عِندَكُمشْ نفْط.

- بس؟

- أنتم شعب بَاهِي، ما عندكُمشْ بترول.

- بالله؟

ألزَمني ربِّي حزمةَ كُتُبٍ خضْراء لتحضير دروس وليده.. شدّدَ عليَّ أن أستذكرها جيِّدًا في بيتنا العربي، وهو يعلم تَمام العِلم أني «مَعصور» في فُرن الجماهير، مِن الدُّغْش البدْرَاني وحتى منتصف الليل.

قرأت على غلاف منهج الجماهير تعميمًا يقول إنّ «التعليم الإجباري تجهيل إجباري»، وتواءمت مع قدري في جمَاهيرية العصْر. سطعت شمسُ الشَّغيلة، فكانت روحي أمام تِلالٍ من خبزي الحار.. إنّه صِناعتي وبِضاعتي التي لن أبيعها لهؤلاء المفاتيح إلا بعدَ سؤالهم النّمطي الذي لا حِيادَ عنه: في خُبزا؟

عند الجبال العتيقة بعد محطّة «الجيلي» جاءني الكُمساري بدفاتره وصلْعَته اللامِعة. كان القطار قد نفَشَ ريشه في صحراءٍ جفّ ريقها.. هذا المتّوكي -إن كان مِنهُم- فسيرميني

في قبضتهـم، أو في أي ناحيـة مـن سـندات «قَفَـا البَحَـرْ».

حين يسألني عن التّذكرة سأقول له ماذا؟

هـا هـو ينفُـذ نحـوي كَـشَبَشة. جلَحاته المشـوبة بالحـذر تذكرني بأسـنان قلـم التروبِـن. هـذا الفِريـم السّـميك هـو الفـارق بينـه وبـين قبيلـة العُمـي.. الرّجُـل مِثـلي مِثلـك، أفقـرَ عينيه مُستبْلِسًـا بأيدلوجيـا الغضـب حـتى شـهِد مواتهـا.

سـألني عـن تذكـرة السـفر فحدثتـه كاذبًـا عـن النضـال. قبـل أن يسـتوعَبني جيِّـدًا، لعنـتُ لـه بروسـترويكا قورباتشـوف وأعلنـتُ نفـسي أحـد شرفـاء القضيـة:

- هـل لديـك اعـتراض يـا زميـل، عـلى خروجـي بهـذه الطريقـة، مـن دار الإيمـان إلى دور الكُفَّـار؟

ضحِك المَتوكِي عاليًا، بين دَارٍ ودَار.. أطربتني ضحكته، فقلتُ:

- هبـني اسـتبقيت روحـي داخـل هـذا «المجـروس» الإخـواني، كيـف سَـأحيا مـع هـذا التّحمـير؟

وضربـتُ طريقـي في الصحـراء.. أهـل القاهـرة يعشـقون القشّـاء والفـوم والفلافـل.. عنـد كنيسـة «سـانت فَاتِيـم» بمـصر الجديـدة، عَـبَرت أُنـثى قوقازيـة الملامِـح. امـرأةٌ مُسـتجْعِبة عليهـا نقـشُ نُحـاس التّتـار. جيدُهـا ماجِـل وصدرُهـا رَحيـب وحَاجِباهـا يُحلِّقـان فـوق جبينهـا كجناحـي طائـر.. هـي المدينـة في سـاعة الرّحيـل. في تلـك السّـاعة تحْلـو المدينـة، أكـثرَ مـن أي

وقـتٍ مـضى.

دعـاش البحـر مـن ناحيـة الإسـكندرية يـأتي بعبـق مُدونـاتٍ قديمـة.

للصحـراء في الليـل خريـر الجـداول والأنـوار المُضْمَحِلـة تتناثـر في بهـو اللّيـلِ كبقايـا عطـرٍ علِـقَ في الذاكـرة.

ذاكـرتي معطونـة بالعرجـون أوانَ الطلـع، وبجدائـل عيـش الريـف وروث الحقـول، و، و..

رأيـت البحـرَ تـارَةً أُخـرى في مـرْسَى مطْـروح. عـلى يسـاري حقـلُ ألغـام وعنـد الشـاطئ تتسـاقط طيـور السـمّان في حتفهـا. قمـرٌ بتفاصيلـه يتـبرّج فـوق المـدى، والرقـراق يُناثِـرُ شُـعاعًا كالوِشـاياتِ الـتي يتعيّـشُ عليهـا المُناضلـون.

الجماعـات الأُصوليـة ضربـت قطـاع السـياحة في هـذا البلـد وتكشّـفَ الرُّكـن الأصيـل في حديقـة المسـاء.

أنـا عابِـرُ سـبيل.. جيـبي مخـذول، وأخـافُ مـا سـيأتي. ضلوعـي تحتشـدُ باليـأس ووطـني لـن يخـرج قريبًـا مـن كوابيـس الدّفـاع الشـعبي. سِـحنَتي الـتي يُقـال إنهـا سـمراء جلبـت إليَّ الكلامـات مـع مـن يعـرف ومـن لا يعـرف. كلّ مـن أجلـس إلى جـواره مـن أهـالي المحْروسـة أو يجلـس إليَّ، يسـألُني سـؤال الضَّهَبـان: يسـألُني بإلحـاحٍ عـن الشـيخ، عـن حـرب الجنـوب، وعـن الـرّي المـصري.

سألني شِبلُ ربِّي في بداية عهدي بالفُرن:

- عِنْدكُمْ في السودان خُبْزا؟

- «عِنْكُم» في السودان بَحَرْ؟

في صُبراتة، سألني لِيبي في خمسينيات عمره: منْ قائِدُكم؟

عندما تلعثمتُ، عاجَلني: من مَليكُكُمْ؟

هـل أقـول لـه إننـا رَعايـا دون راعٍ فـيزداد بـؤسي، أم أقـول لـه إننـا انتقلنـا إلى النّظـام الجمهـوري، فيؤنِّبـني: وليـشْ مـا تِعْمَلوهـا جَمَاهيريـة وتِرتاحـوا؟

عنـد منفـذ «السلّوم» تغـيّرَت أشـياء كثـيرة. هنـاكَ أهبـطُ قـسرًا مـن بـروج عقيـدَتي وأتَبـنَّى اشـتراكية الرّمـل. مِـن الآن وصاعـدًا سـوفَ أتعاطـى مـع جِداريـات القائِـد المبثوثـة في الشـوارع ككائنـات نابِضـة بالحيـاة. منـذُ الآن يجـدُرُ بِي أن أتسـلَّقَ جيفـارا وكاسـترو، وأقـول عندمـا تـأتي مناسـبة القـول: إن أبي كان نديمًـا للصّـاغ صـلاح سـالِم، وإننـا في السـودان مُنـذ عهـدٍ بعيـد، نُصـدِّرُ لمـصرَ ماءَهـا وزعماءهـا.

سـأقولُ لهـم إن ثـورةَ يوليـو، نبعـت مـن «جبـل الأوليـاء»، ولا ضـيرَ في ذلـكَ، فالفِكـرة أُنـثى..

عِندمـا فَـارت النّاصِريّـة في مِـصر ودخلـت في عِراكهـا مـع الإخـوان، قـال عـمّ عبـدُه إن الحلْفـاوي الـذي حـاز الشـهادة

العالميـة مـن الأزهـر، وجـدَ نفسـه مُضطـرًّا إلى افتعـال موازنـة بـين «سِي السيِّد» و«سِي جَمـال». وعندمـا عَـادَ إلى وادي حلفـا ووقـعَ انقـلاب ١٧ نوفمـبر في الخرطـوم، اضطـر إلى تسـمية ابنـه الآخـر «عبّـود» تيمنًـا بسـعادة الفريـق.

- الـوَادْ سـيّد، لمّـا جنّـدوه في تنظيـم الإخـوان، بقـى يعمِـلْ حَـركَاتْ.

- حركات زي إيه؟ همَّ مشْ بيقولوا، إن الإسلام هو الحل؟

- يـا سـيدي مـا قُلنـاشْ حاجـة، بـسّ حلْفـا الجديـدة مـا تِتْنامشْ، كلّهـا بعوض!

- كيـف يَعـنِي مـا تِتْنامْـش؟ يعـني خشـم القِربـة -باسـم اللهِ مـا شـاء الله- مـا فِيهـاشْ «تِـسِي تِـسِي» خالـص؟

- إنت برضَك بِتتمسْخَرْ؟

- يـا عمّـك إنتـو مـش فاهمـين الإخـوان دول.. إنتـو مـا تِعرفـوش هـمَّ مـين.

- طبْ فهمِنا إنتَ بَقَى.

- خلّيهـم يحكموكـم سـنة واحـدة بـس، عشـان تقـع ليكـم الحِكَايَـة كويِّـس.

لا شيء في «السّلوم» غير الجند والملح والسّونج.[١٧]

١٧ حجر رملي.

مـضى القائِـد إلى داره الآخـرة وهـو يتوسّـل مُجاهِديـه الخُـضر: يـا شـباب، يـا شـباب..

خرطـوم الجِـنْ هـي خرطـوم الجِـنْ. عـاد «جـون قرنـق» ومـاتَ والقـوم مـا زالـوا يتحدثـون عـن الاسـتراتيجية القوميـة الشـاملة!

رؤسـائي المبـاشرون مـن التوانسـة والمروكيـين ينظـرون إليَّ كـجركانة زيـتٍ فارغـة. خِشـيتي مـن الإحالـة للصّالِـح العـام أنشـأت بـين جوانِحـي عُقـدةً مـن أي جركانـة فاضيـة أو مليانـة. كان الزيـت هـو مسـوغ فصـلي مـن وظيفـتي كفـرَّان نـادر المثـال بمدينـة الزاويـة الـتي تحشّـدَت بعـدَ ذلـكَ باللِّحَـى القاعديـة.

تعلمـتُ الحِكمـةَ مـن القواريـر الفارِغـة ومـن مسـاعدية اللّواري. صاغـت الأوامـر الـتي لا رادَّ لقضائهـا غُبـارَ فكـرتي. كنـتُ عـلى اعتقـادٍ قديـمٍ أن ابـن آدم يجـري كالوحـش فـلا يحـوش غـير رِزقـه المكتـوب.

إن كانَ ذلكَ كذلكَ، من أين إذن تَنغْنَغت وُحوش الدّعشَنة؟

هل ضربهم حَجَر دُغُشْ في سبيل هذا النعيم؟

كان المـرّوكي يُديـرُني -يمـين شـمال- كمـا يُـدار دركْسـون التَّراكْتـور في حواشـة. كان يتغنـدر ويتبغـدد عـليَّ وينقُلـني كيـف شـاءَ، مـن المخـزن إلى نـار الفُـرن تنظيفًـا وتعتيـلًا وتقطيعًـا.. إن فرغـت مِـن كِناسـة الكُوشـة، أحالـني للعِتالـة، وإن فرغـتُ مـن العِتالـة صرَفَـني لِبيـع الخـبز الحـار والإجابـة عـن أسـئلة الثـوار:

- في خبزا؟

كنت أحيانًا أُجيب عليهم بكلماتٍ لن يفُك أحد منهم طلاسمها:

- نَانْ دَه مَريق؟[18]

- أريتك بي عَمَى دَقوسْ، قول يامين![19]

- الدّاهي تِحت نَخرتَكْ، وإنتَ تسْعلْنِي؟[20]

كلمات «عربية» لا يستطيع أحدهم إلا أن يسألني بعد أن يسمعها: شِينْ بِتْقول يا سُوداني؟

وبينما كانت صبايا الجماهيرية يذهبن غُدوةً إلى تجهيلهنَّ الإجباري، كانَ المرّوكي يأمرني بغرورٍ كأنه مليك زمانه. كان يقول كلما جاءت سيرة الحكام العرب، عن مليكه جلالة الملك، وكان التوانسة يقولون عن رئيسهم الذي هربَ: إنه زينُ العرب.. كانوا جميعًا يتباهونَ بزُعمائِهم إلا أنا.. كنتُ أقول لهم كلّما هَابشنا السياسة: إن السودان يحكمه الكيزان. كانوا يصمتونَ فلا أدري إن كانوا يعرِفون هذا الصنف مِن النُّخبةِ أم تُرى يحسبونهم عيالًا لإبليس.

- هل هُم مِن الإنسِ أمْ هُم قَبِيلٌ مِن الجِن؟

---

١٨ هل هذا عيش ريف؟

١٩ ليتك أعمى لا ترى شيئًا.

٢٠ الخبز تحت أنفك وأنت تسألني عنه؟

سـألوني هـذا السـؤال بصيـغٍ مختلفـة، وكنـت أُجيبهـم بـأني لسـتُ أدري، فيقولـون:

- والله لَسُوداني «مُسكّرْ».[٢١]

- إنتَ عِبيدْ رُبع دِماغ، ما تِعْرفشْ حتَى مِين يِحْكُم بِلادَكْ؟

- لا أعـرف أصلهـم ولا فصلهـم، لكنّهـم يأتونكـم غـدًا أيّهـا الأعـراب المناكيـد، ليعرّفوكـم بأنفسـهم!

كانـوا يصمتـون عـلى هامـش أقـوالي خِشـيةَ أن يُورِّطهـم «هَـاي العِبيـد المُتَفلْسِـف» في حقـول السياسـة.

القـادة يصدقـون أحيانًـا والشـعوب يمكـن أن تُخطـئ. ثـوار النّاتـو عطنـوا قائِدهـم في دمائـه وأورثـوا مُلكـه لـلسّلف الصالِح.

مـاذا يريـد مـني هـؤلاء المفاتيـح؟ هـل «أكْسِر رَقَبـتي» عِقابًـا عـلى اختيـاري اللجـوء إلى جماهيريتِهـم، فِـرارًا مـن دولـة الإخـوان؟

سـعِيّة النُّشـوق يضرِبُهـا النُّعَـاس.. الوجـوه الـتي جذبـني بريقهـا ضاعـت في الـدروب. كانَ لتلـك الأُنـثى تَباريـح. كانـت لهـا لدغـة في الحَشـا وشـجنٌ مثـل بلـل السّـلام عـلى الغريـب. وجهُهـا كأنّـه الكِرْتِلّـة، عنـد كل ناحيـة فيـه بصيـصُ أمـل. أغدَقـت عـلى أردافِهـا عطـر الليـل الكافـر، وانتهـى الأمـرُ كمـا ينتهـي دائمًـا بـينَ ذكـرٍ وأُنـثى.. ظَعَنَـتْ وراء البحـار، وعـبرتُ أنـا إلى هـذه البِيـد.

٢١ مُنغلِق ومُتحجِّر العقل.

مطـر الشـتاء يُبعـثر الذاكـرة. في طريـق الحيـاة يضـعُ الواحـد منـا أشـواقه في سِـلال الأيـام، فتمـضي الأيـام والسِّـلال.

مدينــة الزاويــة تبــدو فارغــةً مِــن نســاء اللّيــل. النســاءُ في جماهيريــة الرّمـل مثـل ظـلٍّ في العتْمـة. لا شيء بعـد العِشـاء الآخـرة إلّا السّـكون وأزيـز خطـواتي المُتعبـة الـتي تفـرُك أسـفلت الشـارع. القلـب بيـت الله والصّـبر قـاسٍ والمحبـة قـدر.. غـدًا يخـرج مـن هـذا الأسـتاتيك نبـعُ ثـورةٍ لـن تجففـه الرّاجِمـات.

قـالَ لهُـم إنّـه لـم يسـتخدم القـوةَ بعـدُ. قـالَ إن الأُجـراء مهمـا تحسّـنت أُجورُهـم فهُـم نـوعٌ مـن العبيـد، لكـن مـا شـأني بالأحـكام السُّـلطانية وأنـا بـينَ دخاخـينٍ تُغبِّـشُ كُلَّ سـانِحة عِشـقٍ راوَدتـني؟

طيفُهـا لا ينَـام. طيفُهـا يغـدُرُني. طيفُهـا يُداهمـني في الهزيـع بأُمنيـاتِ العـودة إلى وطـنٍ لفـظَ أحِبّتَـه وآوى سـارقيه.. ذاتَ صبـاحٍ شَـاتٍ كُنـتُ أعجـنُ خـبز المدينـة عِندمـا جـاءني صاحـب القيطـون.[٢٢] عجـوزٌ أغَـم في عينيـه عِـراك وعـلى صِدغيـه رسـمُ الحَفيـف فـوق الكُثبـان. شـيباني مُعصْعِـص، لكنّـه ليـس دهريًّـا مثـل عواجيزنـا. عجـوزٌ مُتحفِّـز كأنَّ أصابعـه المعْروقـة غُمِسَـت بأمـر الجـلّادِ في دمـاء الرَّفيقـيْن بابِكـر النّـور، وفـاروق عثمـان حمـد الله..

هيئتُـه توحِـي بعـرمٍ مفضـوحٍ نشـبَ بـين الطلاينـة وعَربَاوِيّـات

٢٢ سيّارة بوكس مكشوفة.

السّـاحِل. مِثلـه كثـير في هـذا السّـوخ.. أعـرابٌ مُهشَّـمونَ لا يعلمـونَ أن بِلادهـم النافِطـة تكتـبُ فـوق طبلونـات مشـاحِنها أن بـترول ليبيـا عـالي الجـودة، بمـا نسـبته تسـعونَ وكـذا تسـعة مِـن عـشرة بالمئـة.

عـلى شـفتيه أسًى. عـلامَ يتـأسى هـذا العجـوز وقـد لبِـثَ فيهـا أحقابًـا؟

ما جدوى التغيير بعدَ تأميم الأحلام؟

لِـمَ يغتـمّ وهـو الـذي لـم تشـمله قوائـم الإحالـة للصّالـح العـام؟

مـاذا يريـد مـن الدُّنيـا إن كان لديـه في كل مدينـةٍ شـارعان يتعامـدان كأعـواد المشـانق، أحدهمـا لعمـر المختـار والآخـر لعبـد النـاصر؟

قـرأ قائِدهـم خلاصـة التقاريـر، لكنّـه لـم يُـدرك حـتى مقتلـه، مـن هـم أعـداؤه!

داهمتـني هواجـس الغريـب وأنـا أُشـعِلُ النَّـارَ ريثمـا يفـور العجـين.

يقولـون إن الصّهاينـة أغرقـوا شـبابهم في الخَـدَر اللذيـذ. ليـتَ ذكريـاتي مِثـل ذلـكَ، خـضْراءُ دِمـنْ..

جـاءني صوتـه كَرَغْـوِ جَمـل. قـال العَجـوز إن الطلاينـة غَـرَّروا

بالبدويات.. عاجلته بسؤال غير مسموح به في تلك الجغرافيا:

- هل البداوةُ أُنثى؟

لم يتوقّف عند مقصدي، بل مضى مؤكدًا أن الطلاينة غادروا الساحِل بعد معارك طاحِنة في «العَلَمين»، ثم أردفَ أنّ بلاده تحرّرت بفضل القائِد..

أبدَى العجوز ذو العيون الأطلسية ثناءَه على الثورةِ حتى شارفَ على الهُتاف: فاتَحْ، ثورة شعبيّة!

أوشكَ أن يقولها لولا أنني رشقْتُ بصيرتي عليهِ، لأستَبينَ إن كان يقول ما يقول، على وجه التحقيق أَم «مِن الطقّوقْ ولي فوق».[٢٣]

كان «يمْعَط» الكلام على هذا النحو، وفجأةً عاد إلى صحرائه بمثلِ ما التقَطَ قائِدهم أنفاسه و قرّرَ أن يُطارِدهم كالجُرْذان.. انتهرني نحو كراكيب الخُبز المُتعفِّن كأنه لم يؤانسني إلا مضطرًّا:

- هيّا يا سُوداني، هيّا سَقِّدْ رُوحَكْ.

- لا شأنَ لكَ بِروحي.

كُنتُ ومِن بابِ الاحتجاج المُبطَّن، قد رفعتُ عقيرتي بآيةً قرآنية تقول: (عَليكمُ أنْفسَكُم...).

٢٣ إن كانَ يقول ما يقول عن قناعة، أم هو كلام، مِن طرف اللِسان.

- شِينْ تِقولْ؟

- أقولُ إنّني أستشعرُ وقع أقدام السّلفيينَ فوق رؤوسِكم.

- أيشْ أيشْ؟

- «أرجَي الرَّاجِيك»[٢٤] حنَي يأتونَ غدًا ويصِزبونَ عليكم خِيامَ اللّيل..

قلتها وحشرتُ نفسي في سَياييل العَفن. قُلتها وانغَمستُ في كائِنات الخُبز التي تَتخلَّلُ أنفي وأُذنيَّ وفرَجات أصَابِعي وكُلّ ركنٍ عزيزٍ مِن جَسدي.

قالَ الشيخ إنّ الثورة هي الشريعة.. قال إن الثورة هي المشروع الحضاري.. ثم قالَ إن العَسْكر لا يفهمونَ غيرَ «صَفَا، انتِباه»!

أين ذاك العجوز بعدَ سطوة العناصِر «المؤْمِنة» على حقول النّفط؟

أينَ هو مِن خفر السّواحل في الشّاطئ الآخر وهُم ينتشلونَ من أفواهِ السّمكِ جثث آلاف الأفارقة الهَاربينَ عبر ليبيا؟

بعد واقِعة بَنات الفينيق التي حدّثتكم عنها، تركني عِثْمَان في الحِلّة «أحاحِي الطير»[٢٥] غادرَ الحِلّة مترقيًا إلى قصور

٢٤ انتظر قدَرك البائِس.

٢٥ عاطلاً.

الخرطـومِ ولـم ينـس الإنعـام علينـا بنقـل مسـئولية الريمـوت -الجهـاز اللّاقِـط- لمجاهـدٍ آخـرَ بعـد أن اشـترط عليـه التركـيز عـلى البرامِـج الرِّسـالية.

كلما غَلَبَـني الرِّفـاق في لعِـب الـورق، أو رصّعـوني بــ «سِـيكْ» في الوّيِسـتْ[٢٦] كنـتُ ألـوذُ بالتلفزيـون في محاولـة مـني لمعرفـة لغـة القـوم.

عـادَ عِثْمَـان إلى الحِلّـة بعـد غدرهـم بضُبّـاط حركـة رمضـان.. عـاد ممتطيًـا ليْـلى عُلـوي[٢٧] تغـيّرت معالِمـه تمامًـا. «بِقـى تَرْيـان»[٢٨] شـذَّبَ أصوافـه فصـارَ أقـرب في الفخامـة إلى الـوادْ «أحمـد مَنصـور»، منـه إلى «راغِـب علامـة»!

جلبابـه كان ناعِمًـا، وهـا هـو يتـذرّعُ شـالًا مِـن خطـوطٍ ثلاثـة: جهـاد، نـصر، شـهادة.

عربة البَهَاء رسمت حِنّاءَها على أزقّتِنا.

فتح بابها فشممتُ عطرًا جعلَ لواعِجي تصحو..

العِطرُ يُفاقِم ذهنيتي الطبقية..

العطـرُ ليـس مـن أكْمامـه وحدهـا، بـل مِـن وسـائدَ عتّقتهـا الكنْدَشـة.

---

٢٦ لعبة كوتشينة.

٢٧ لقب لسيارة فارهة في السودان.

٢٨ عليه آثار النِّعمة.

دفعَتـني ذِهنيـتي إلى مزيـد مـن الفضـول. نـزلَ وهـو يقـدِل مـن فارهـة مُشـتَّحة الأبـواب. مُـذ جـاءَ وأنـا «أجُـرْ فيهـو النّـور الطّويـل».[٢٩] لا أظـن أنـه -عِتْمَـان سـوّاق اللّسـتر- يجهـل شـيئًا ممّـا حـدث.. أدخـلَ يـدًا ناعمـة في أصابعـي ثـم سـحبها بسرعـةٍ كمـا لـو أنـه كَـرَشَ حائِطًـا.

قالَ وهو يُصافِح مستقبليه الذين هُم أهلي وأهله:

- أووه، إنت لِسّه قاعد؟

وبمـا أنـني أعرفـه ظاهـرًا وباطنًـا، فـلا شـك أنـه يعـنِي مـا يقـول: إنـت لِسّـه عايِـشْ؟

- أيوه يا عِتْمَان، الحي يَفرْفِرْ!

- أيوه، الحي بِلاقي!

تصـدّرَ المجلـس وأمامـه جـكٌّ كبـير مـن الحُلـو مُـرّ.. حدَّثَهـم عـن الجـرِي، وعِـن التّعـب الشّـديد في العاصِمـة، وعـن مجاهـدات أخَـوات نُسيبة، وعـن عاديـات الـدول الاستكبارية.. ثـمّ حانـت مِنـه التفاتـة نَحـوِي فترامَحـت العيـون.. قـالَ وأنـا عـلى حالـة الفضـول تلـك:

- النـاس دي لسّـه مَاشِـين في درب الضـلال والبلـد مُحـاصرة مِـن أمريـكا؟

٢٩ أُحدّق فيه بقوَّة.

قالَ وعينه تُراوغني:

- المُرجِفين والمُندسين ديلْ، لِسّه مُبارين الضّلَلَة؟

سألهم عن وابور اللّسْتَر فأفادوه أنّه بخير، لكن ينقصهم الجاز.. قهقه قائلًا:

- إنتو ما عارفين إنّو ثورة الإنقاذ مزّقَت فاتورة البترول؟

ثم عاد مرة أخرى للحديث عن الكوتشينة، وعن المُلحِدين.. بعد ذلكَ أطلقَ العبارات المعروفة لنهاية كل جلسة إخوانية.. أفردَ السبّابةَ -إصبع التحدي- ووقف بكرشٍ بديعٍ لأخذ استراحة من عَناء المُصافحة.

أُنيرت الحِلّة حتى منتصف الليل ترحيبًا به، أمّا تربيزة الكوتشينة في النّادي، فقد قرفصوا عليها المَنَفِلّة وجالونَ زيت، مع خرطوش مقطوع ومفتاح إنجليزي.. أمّا أنا وعلى الفور، بدأتُ في مواجهة الآثار الجانبية لزيارته الخاطِفة.

دلفتُ إلى قوز الحِلّة وفي يَدي راديو روسي. سمعت الإذاعة تقول ما لا أزالُ أحفظه عن ظهر قلب: «وجديرٌ بالذكرِ أنّ سيادته سيستقبل فورَ عودته من مسقط رأسه، وفدًا رفيع المستوى من مجلس الصّداقة الشعبية العالمية)!

في الفلواتِ يحلمُ الشغيلة بعودة المسيح.

ثعلبُ الصحراء اخترق المدى من هذه الناحية نحو مرقده

الأبدي.

الحـربُ قـدرٌ مُتأنسِـن. لـو لـم تُنْشِـب أظافِرهـا فينـا لما وسِـعتنا الدُّنيا.

لـو لـم يقتـل القائِـد كثيرًا مـن شـعبه لمـا تحَّكـم فيهـم أربعين سـنةً ونيفًا.

لـو ظفـرَ بِهـم قبـلَ حـينٍ مـن الدّهـر، لبقِـي فيهـم أربعينيـة أخـرى.

في ذلـك الضُّحـى وبينمـا كان سِلِسْـيون المَصاطِـب يمـلأ أنفـي، احتقبـتُ نظّـارتي وذهبـتُ إلى مِيلـود.. ليـسَ لـديّ مـا أخـسره سِـوى الوقـت.

كل المفاتِيـح تتحفّـزُ لاختبـار جَـدارتي في كتابـة طلبـات العمـل، إلا هـذا المِيلـود، صاحِـب صيدليـة الـدّرب الأخـضر في مدينـة سِرْت.. لـم يختـبر ولائي، ربمـا لأنَ هيئـتي لا تـشرِّف جَنابـه الثـوري.

دخلـتُ عليـه دسْـكَرَه الـذي يفـوح بالنّفتَالـين وزُعـاف الأدويـة. بـادرني بالسـؤال التقليـدي في ليبيـا:

- شِينْ تِبِّي؟[٣٠]

- جئتُ طلبًا للعملِ بوصيةٍ من البروفيسور عبد الغفار.

---

٣٠ ماذا تريد؟

- وبَاهِي.

- البروف يقول إن لديك فرصة عمل شاغرة.

- شِينْ تِخْدِمْ؟

هـذا الليـبي -قـال الـبروف- إن لديـه فرصـة عمـل. في حُكـم المؤكـد أنـه يَبْتغِيـني كتّاسًـا أو حمّـالًا، ومـع ذلـكَ هَـا هُـوَ يُشّـهيني السـانِحاتِ، كأنـني مـن يختـار قـدره في هـذه الفـلاة!

هـذا سـائسٌ آخـر في عَـصْر الجماهـير، يُعيـدني إلى عَكْننـة الحديـث بالعبـارة الـتي تليـقُ بـه.. قلـت لـه:

- أنتَ لا أنا، من يُجيب على هذا السؤال.

كان الـبروف -وسـيطي للعمـل- سُـودانيًّا مُقرَّبًـا مـن القائِـد وعضـوًا بالمثابـة الكـبرى للجـان الثوريـة. لا أعـرِف لـه منتوجًـا أكاديميًّـا، عَـدا أنـه أمـضى زهـوَ الليـلِ مُتَشـاغِلًا عـنّي بتنظيـف غُليونـه الذّهَـبي.

ولكـني قصـدتُ فضلـه. داهمتُـه في مسَـاكن جامعـة التّحـدي حيـثُ يـدرِّس ضحاياه. قِيـلَ إن شَـفاعته لا تُـرد وإن إشـارةً منـه يمكـن أن تنقُلـني إلى مـا وراء الشـمس. إن كانَ للصحـراء طـرف فقـد حملتـني إلى هُنـاكَ، سـيّارة «جِلانـت» مـا بـين خـضراء ورصاصيـة.

وجدتـه نحيـلًا وبِعيَـنيّ قِـطْ.. هكـذا كُنـتُ في باكِـرتي أسـتنكه

أسرار العيـون، عَـلِيَّ أن أسـتبين في حدقاتِهـا جُـرح الخاطِـر أو غدائـل الرُّشَـاش.

وجـدتُ في مَعيّتـه سـودانيًّا لا أدري صِفتـه، لكنّـه كان مسـلّحًا بمسـدّس أتوماتيـك.. أَهُـوَ الحـارس الشّـخصي لمُمثلنـا داخِـل الفـرع الأسـمر مـن غُصـن الثـورة؟

كان بينهمـا شـامِيٌّ أزاحَ شـاربه إلى نُقطـة العَـدم، فبَـدا كأنـه مـن قَبِيـل الإخـوان الجمهوريـينَ، أو عـلى ذاك النّحـو المُقابِل.

اسـتقرّ اللّيـلُ فينـا. الـبروف مشـغول بغليونـه، والشّـاميُّ يُفـلِّي بلهجتـه المكسـورة منابـت الشـعرَ في ازدواجيـة السـاحل والصحـراء.

بـدأت السّـهرة.. بدأناهـا بِشـتم الإخـوان، فهـذا متفـقٌ عليـه بـين المسـتنيرين.. هـذا عطـاءٌ يُقـرِّب مسـافة الشِّـقاق بـين ألـوان الطّيـف.

كان الـبروف يشـارك باقتضـابٍ ويومـئ تحببًـا حينَ يقول الشّـامي الحَلِيق، أن لا بديلَ أمام الشّـعب سـوى سُـلطة الشـعب.

في تلـك السـاعة مِـن حواريـاتِنا أوردَت التّلفزة التونسـية المسـموح بهـا هنـاك، تقريـرًا عـن تفجـير عبـوّة ناسـفة لإرهابيـينَ في الجزائـر.

كان يخـرج مـن صمتـه ريثمـا يعـود إليـه بعـدَ أن يقول فينـا كلمة الثـورة.. قـالَ إن الفِكـر الأخـضر قـدّمَ للبشريـة مُعالجـة كاملـة

لأزمـة نظـام الحكـم، وأنّ النظريـة العالميـة الثالثـة هَضَمـتْ جوهـر الدّيـن، وأن مـا يُنافـح عنـه المثقفـون مـن وجهـات نظـر متباينـة، مـا هـو إلّا طوباويـة تجاوزهـا الفاتِـح العظيـم!

أجـواءُ البحـر مُمطِـرةٌ يـا سـيِّدي، والعدالـةُ غانيـة تِتْجـدّع بـين الصّـدور.. ذاك الفِرعـون يريـدني أن أعيـشَ كمـا يَتَرغّـب، وهـذا المُؤيّـد بالنّفـط والرّصـاص لا يحتـاج إلى تأييـدي، ولكنهـا فقـط، تجرُّعـات أمـل.

انقسـم الليـل، و«الوَنَسـة جَـرّتْ»[٣١] دخلنـا وخرجنـا، خرجنـا ودخلنـا -عـلى بـاب اللهِ- في حـوش الدِّيـن، وقلنـا مـا لا يتوّجـب التكـرار: قلنـا إن الدولـة يجـب أن تقِـف عـلى مسـافة واحـدة مـن جميـع الأديـان.

قلنـا إن التعبُّـد شـأنٌ شـخصي وإن إلهَـكَ الـذي بـين جنبيـكَ، ليـسَ هـوَ إلـه الطّبقـة العامِلـة أو العالِمـة، ولا هـوَ إلـه العـوام... ثـم توقـفَ البـوحُ عندمـا تبـدّت لنـا نُـدوب الثـورة. كففْنَـا أطـرافَ الحديـث عـن اشـتراكيةٍ سـقط جِدارهـا.

ثـم سـكتنا.. وضعنـا الخمْسَـة فـوق الاتنـين[٣٢] عندمـا قـام الشّـامِيُّ الحَلِيـق ليُكفِّـر عـن سيئاته أمـام الكفيـل. كان في البـدء يُبـدي ترحيبًـا حـارًّا بمـا تبقـى لـديَّ مِـن ديالكتيـك، لكنّـه حـين قـرأ الموجَـة الخـضراء لاذَ بالثنـاء عـلى القائِـد.

---

٣١ تطاول الحديث.

٣٢ كناية عن الحيرة.

رأيتـه ينهـض في ذلـك اللّيـل مـن دِثـار المارلبـورو ليـؤدّي صـلاة العِشـاء دونَ مضمضـة أو وضـوء!

لا بـأس، فللـضَّرورَةِ أحكامُهـا.. لا بـأسَ مِـن سـانِحة للتـبرؤ مـن صولجـان شـيوعيةٍ سـقطت بفئـوس الزمـان.. لا بـأس، فكلّنـا يحتـاجُ إلى انتكاسـة كهـذهِ إذا مـا عـزَّ المسَـار.

وسألني ميلود، صاحب الصّيدلية:

- شِينْ تِبِّي؟

- نِبّو نِخْدِمْ.

- شِينْ تِخْدِمْ؟

طنطنـتُ أحـدِّث نفـسي كأنّ بيـني وبينهـا عُـوَارًا. قُلـت لـه في سرّي: دحـين يـا عَـرَبي، لـو قُلـتَ ليـك أنـا «فِحّيـصْ» بتشـغّلني؟

لفظتـني مدينـة سِرْت فغَادرتُهـا. صرِتُ خبَّـازًا. ربمـا كان أهـلي يفخـرونَ ويقولـون إنـني غـدوتُ مغتربًـا يتلاعـب بالـدولار والشـيكات السـياحية كيـف شـاء.

لا شـكَّ أن عَـذارى الحـي في جزيـرة «تنْقَـسِي» كُـنَّ يتوجسـن عـودتي متأبطًـا عروسًـا اشـتراكية مـن أسـفل التّـلِّ، لكـني عُـدتُ خائبًـا ووجدتُهـم في ذات الحـال. وجـدتُ مُتحركاتهـم تَسـعى نحـو انفصـال الجنـوب، ووزراؤهـم يدَّعـونَ تمزيـق فواتـير الاسـتيراد، والدّبابـونَ يهتفـون: فلـتُرَقْ كُلُّ الدِّمـاء.

وجدتُهم دولة برأسين. الشيخُ يتصدّرُ الواجهة ويُجيِّشُ مريديه.. الشيخ والرئيس، يبْدوَان -وفق عِلم الظّاهِر- عسَلًا علَى لَبَن.

عُدتُ إلى المُراح. لم يتغير شيء عدا شكوى كليمة ظلّ يفردها وزيرهم «تِحِتْ تِحِتْ» بأن نباح «كلب الظهيرة» جلب الخراب لعلاقاتنا مع الممالك العربية الشّقيقة.

عدتُ «أباطِي والنّجِمْ».[٣٣] أخفيتُ خيبتي وكتمتُ أسراري حتى أغدو كما يُعْتَقَد، بأن الأفندية لا يعرفونَ غيرَ التظاهر السلمي وسيلةً لإسقاط النّظام.

في اليوم الأول مع وظيفتي خبَّازًا في مدينة الزاوية، أكرمني المغارِبة باستقبال الفاتِحين.. ضيَّفوني بِتعتيل الدقيق وتستيف الخُبز الحَار وكِناسَة المَحل.

يا ألله، هذه «الكُوشة» لا تنظف إلا لتتّسِخ!

في ذلك اليوم وأنا أقوم بتسييك البلاط، عَرفتُ معنى أن تكون رائِحة الإنسان «طير طير».

في ذاك اليوم أيقنتُ أن لا ثورِي خارج اللِّجان الثورية، إلا أنا.

ربِّي -صاحِب الكُوشَة- الذي وَقَرَ في صدره أن السوداني «رُبع

---

٣٣ خالي الوِفاض.

دِمـاغ»[٣٤] رأى عَـذابي تحـت رحمـة المَرَاوكـة والتَّوانسـة، فـكان تحفـيزه أن انتَدَبـني مِنهـا إلى مخـزن الدقيـق:

- والله أنتَ سَبْع يا سُودَانِي.

- كتّرْ خيرَكْ.

- تِشْبَحْ[٣٥] هَاي الخُنْر؟

- أيوه شايفو.

- هَاي الخُبز كله بتوعَكْ.

- شُنو؟

- هَاي الخُبز تأكْل مِنّا، ما حَدَا بِسْألَكْ.

- كتَّر خيرك.

- بَسْ ما تاخُدشْ مَعاك للبيتْ، عِرفتْ عَليّ؟

عاجلته بالتكرار المُحبب في عصر الجماهير:

- بَاهِي، بَاهِي.

هـذا التكـرار كنـتُ أحـرصُ وأعُـض عليـه بالنواجِـذ. إنّهـا نصيحـة السـوادين الذيـن كشـفوا لي -البَاسـورد- كلِمـة الـسِّر!

---

٣٤ أحادي الرؤية.

٣٥ هل ترى؟

يـومَ وصـولي أرضَ الجماهـير نَصحـوني أن تكـونَ «بَاهِـي» في طـرف لِسـاني.

نَصَحوني أن أزلُقها حتى عَلى من لا يُسلِّم عليَّ.

قـال السّـوادنيون في الوصايـا إن أحَاديـث السِياسَـة حـرام، وإن كلام الدِّيـن هـلَاك، وشـدّدوا في موعظتهـم: إيّـاك تجيـب في خشْـمَك، سـيرة آسْ الدِّينَـارِي!

إيـه، فقـد «وَلّى المَسَـا، وَلّى المَسَـا، وَلّى المَسَـاء»[٣٦] وَلّى المَسَـاءُ، وأنـا بـين صفـوف الجـوالات وأرتـال الخـبز، وعَـرقِي «يَـشرْشِرْ»[٣٧] مِثْل الزير الجديد.

سـورة «يَـس» تحتـاجُ إلى «جكّـة» في هـذه الصحـراء، و، و، وفجـأةً هَتَفَـنِي هاتـفٌ مـن سَـمائِهم.. إنّـه الشِّـبْل ابـن الـرّب، أخرجـني مـن ذَاك الكمـين بقولـه، إنـه «يِبِّيـنِي».[٣٨]

- دايرني في شُنو يا زول؟

قـال الـذي لا تُعـصى أوامِـره، إنـه يَبْغِيـني كي أشرح مَنهجـه الأخـضرَ المقـرر عليـه في المدرسـة.

قلتُ بكلِ ما وسِعَني من استعراب:

- كيـفَ تسـمح لي أيهـا الشِّـبْلُ السّـعيد بالدخـول إلى داركـم

٣٦ أغنية للفنان سيّد خليفة..
٣٧ أتَعرّقُ بِغزارة.
٣٨ يطلُبني.

القشـيبةِ، وأنـا بهـذا الوَغَـش العُمّـالي؟

قطّبَ جبينه وقال:

- شِينْ تِبِّي؟

قلتُ بخليطٍ من سُودانيتي واستعرابي:

- دايِرْ لِي حَمّام حتَى أبدو عُضوًا في «هيئة التّدْرِيس».

هـذا مسـاءُ التاسـعة يـدُقُّ في إذاعـة صـوت الجماهـير.. مقدمـة نـشرة الأخبـار في تلفزيـون الثـورة أطـول مـن لسـان «كلـب الظهـيرة»، يُطِـلُّ خلالهـا القائِـدُ فيملأ الشّاشـة عـن بكـرةِ أبيهـا.. هـذا «آسْ الدِّينَـارِي» الـذي يحـذّرني السّـوادْنة مـن اسـمه ورَسـمه.. هـا هـو يُطزطِـز ويَلعـنْ دِيـنْ أمرِيـكَا، سـيِّدةَ العالـم.

كان الشِّـبْلُ زاهـدًا في العِلـم، وكنـتُ زاهـدًا في كل شيء ذي صلـة بالقومجيـينَ والجيفاريـينَ وصنـوف المُجاهِديـن كافة.

بـدأتُ معـه بـدرسٍ في التاريـخ... يقـول منهجُـه إن شـمس الجماهيريـة أشرقـت في الأرض كل الأرض، وإنّ جميـع البِـلاد مِـن زُليتـينَ إلى أُم دَقـرْسي إلى عِـدّ الغنـمْ، إلى فنزويـلا وسـاحِل العـاج، مـا هـي إلا جـزءٌ مـن ذلـك الإشراق!

بـدأت في مُعَافـرة ذهـن الصـبي عسَـايَ أزرع فيـه جملـةً مفيـدة ولا فائـدة، فهـذه فسـيلةٌ أصعـب مـن تَعتيـل الأخيـاش.

كان الشِّـبْلُ -باعتبـاره دولـة المقـرّ - يسـتجوبني ولا يتركـني

أسترسـل في الـشّرح.

الشِّبْلُ لا يكُفُّ عن مُساءلتي:

- عِنْدكُم في السُّودان مَدارِس؟

- كانـت لدينـا مرحلـة ابتدائيـة، وأخـرى ثانويـة، وكانـت لدينـا جامِعـات.

- عَنْكُمْ في السُّودان خُبْزا؟

- لا.

- كُلْكُمْ سُوّادِينْ هِكِّي؟

- نعم.

أيهـا المُناضِلـون: هـا أنـذا في بـلاد المفاتيـح أبحـثُ عـن قـوت يَومِـي زنْقـة زنْقـة.

أيهـا النّاشـطون: لا تلومُـوني، إذِ اكتشـفتُ هُنا -في بِـلاد المفاتيح- أنَّ بِي شـوقًا إلى احتضـان أي حَاجـة فيهـا «رِيحـة البلـد»، حـتى لـو كانـت تلـك الحَاجـة هـي «الكَشّـة»![٣٩]

٤٠ فجائية التجنيد القسري.

٤

كان الـبروف في تلـك الليلـة يُهاتِـف أحدهـم. قـالَ بصـوتٍ مستقيم إنهـم لا يرضـون لقائِدهـم أبـو منيـار بأقـلَّ مـن رئاسـة المؤتمـر العـربي والإسـلامي.

وجدتهـا سـانِحة للتدخُـل في ذلـك الزّحـف الثـوري، فقلـتُ لـه إنَّ شـيخنا الـذّي في سـماوات الخرطـوم، اعتـلى هامَـة العـصر بمبـادرةٍ منكـم.

- مُبادرة مِمنْ؟

سـادَ صمـتٌ فشـيب أركان مجلـس الليـل عندمـا سـألني الـبروف الأخـضر مُسـتقصيًا بهـذه الطريقـة المُختَـصرة الـتي لهـا مَـا بعدَهـا!

قلـتُ لـه وعيـني في عـين الشّـامي الحليـق: لقـد نُصّـبَ الشـيخ أمينًـا عامًّـا لـ«المؤتمـر العـربي والإسـلامي» بمبـادرةٍ مـن الرفيـق «عبـد البـاري عطـوان».

- وهل عُطوان هذا، رفيق؟

- لا أدري.

كان المؤتمر الشعبي العربي والإسلامي قد التأمَ وانفضَّ سَامِره في عاصِمتنا حيثُ يتواءم المجاهدون والمناضلون من يمينٍ ويَسار، فهل كُشِفَ الحِجاب لهذا الثّائر الأخضر فاستَبانَ فروقًا بِنيوية بين الجبهجية والناصريينَ حتى يُغلِظ عليَّ القول هكذا؟

- القائِدُ أصوَبُ رأيًا وأحقُّ بالرئاسة.

كان يتفوّه بحقائقه القطعية من تحت مِنقاره، كأنّه ينتظر مُدافعتي عن الشيخ حتى يُبرر لنفسه افتراسي، لكني قلت له:

- يا مولَاي، هذه صِراعاتُ دَيكَة.

- ماذا تَعني؟

- إنّها منازعات ذَوِي المقام الرفيع، وهؤلاء -كما يقول السودادنة- «فوقْ عَديلُنْ».[٤٠]

- نحنُ نقول إن الثّوري لا يعرِف أنصَاف الحلول.

- ولكن القيادات التاريخية تتدبر أمرها وتختارُ أدوارها.

---

٤٠ يمتلكون أدواتهم التي يديرون بها الصراع.

- لا لا، نحن هُنا نتحدّثُ عن زحفٍ ثوري مُقدّسْ.

- إن كان هُناك زحف، أيكون ذاك الزحف «وثبةً فوقَ هامّة الزّمن»، مثلما يقول الكيزان؟

- لا لا، الثورةُ تحتاجُ إلى مَن قَدَحَ زِنادها.

- لكن القائِد يُعوِّل في ذلك على الجماهير، باعتبارها صاحبة الحق.

هنا، أطبقَ الصّمتُ تمامًا، ولن «أتَفكْفَكْ» مِن هذا المأزق الثوري إلّا بمُمازِحة الفاتِح العظيم.

هدَتني السماءُ حكمةً تقول إن الحقيقةَ كالشمسِ، وإنّ العدلَ سيغمُر العالمَ، وإن الجماهير تعرِف طريقها، وإن النصرَ قريب... ثمّ أضفتُ -بعد فرْشَة طويلة من التعابير التّلفيقية- قولًا صريحًا عن الفِتنة التي يُفتَرَض أنها سَتنْتَهِي بينهم، في نهاية الأمر.

و«اللّيلْ ليَّلْ».. أليلَ الليلُ، الثورةُ عند البدو قرينةُ الحرائق، ويَتراءى لي «السّلفُ الصالِح» بجلبابٍ قصيرٍ وهو يُشعلها من شاطئ «درنة» حتى دار «التِّيبو».

في بِناية طرفية بطرابلس الغرب احتُجزَ «أبا خليل» قائِد جيوش العدل والمساواة.. كان تحت حِماية القائِد عندما سرَى السُّم في جسده. بدأ قائِدهم عهده غادِرًا بِيَسَارنا، واختتمه بمكيدة ضد اليمين، وبين البداية والنهاية جَمَعَ له

السّـودانيون «مـال الكرامـة» بالقـرش والتّعريفـة.

تـراءت لي لفائـف النّاتـو وهـي تـدُك البنيـان المرصـوص، وتقطعُ «أصابـع السّـيف»، وتحـرِق مدائِنـه مثلمـا احترقـتُ أنـا بنـيران الفُـرن والـكلام المَقيـت.

بين صفوف الدّقيق المستورَد غشِيَني التّعَب.

هدّتـني الأثقـال حـتى أحْبَبْـتُ كَانَ وأخَواتهـا، فـلا جـدوى للحـبِّ بعـدَ فـوات الأوان.

البـوحُ الـذي أسْـكَرَ أيامِـيَ لـم يعُـد فيـه شـميم، وعندمـا هتـفَ قلـبي كانَ زمـاني بَخِيـلًا..

قـرأتُ في رهْـوَ السـحاب آيـة الهجـرة وولِجـتُ الفَـرَا، وهـذا الفُـرنُ دِفءُ شـتائي.. بيـني وبـين فَسَـحة المدينـة الكـبرى لفعـةٌ مـن ضَبـاب. سّـاحة المدينـة -الزاويـة- غـدت حُطامًـا مثـل بخـور ليلـة الزّفـاف.. هواجِـس الغريـب والعِتالـةُ والنّـار واستفسـارهم الغَـبيّ، وهَـاي العِبيـد «الـزَّ» يبيـع لهـم طواجِـن مـن العيـش المُـدرْدَم، بينمـا أهلـه هُنـاكَ يتضـوَّرونَ جوعًـا.

يسـألونني، كأنهـم لا يُبْـصِرون.. يسـألونني والخُـبز عـلى قَفـا مـن يشـيل: في خُـبْزا؟

ويجيبهم - أنا العِبيد «الزَّ» بالإيجاب.

إيه، معتقدهم الثوري يوجِبُ الرُّضوخ.

«أقـولَا مِـن الضّمـير والفَـمْ» حـتى لا يُحيلـني ربِّي إلى الصّالِـح العـام.

في ضُحى تدشيني فرّانًا قالَ لي: ريتْ ولّا؟[٤١]

كنـت جديـدًا عـلى تلـك المناخـات فلـم أفهـم لألاءه، حـتى أردفَ مادِحًـا شـخصي الضّعيـف: إنِـتْ سُـوداني بَاهِـي، لَكِـن حِنّـا نِبُّـو الأَمَانـة.[٤٢]

لـم تَغِـب عـنّي إشـاراته تِلـكَ، يـومَ إطلاقـه فَمـي، ليـأكلَ مـا شـاءَ مِـن خُـبزه المدْبـوغ بالزّيـت.

أيتهـا التّعـول النّازفـة فـوق العـلالي: جائِـعٌ أنـا ومِلكيّـتي كُلّ هـذا الرّغيـف.

أنا بعضُ رعية هذا المِفتاح.

أنـا مـن يعلـمُ أنَّ خلـف تلـكَ التِّـلال أقوامًـا مثـلَ يأجـوج ومأجـوج.. أقوامًـا يخشَـاهم القائِـد كخشـية هـذا الـرّبّ مِـن غَـدْري.

إنـه ربِّي... أعـرف مزاجـه العـام مـن مِشـيَتِه. ربّي يمـشي هكـذا، هكـذا.. يأتيـني ضارِعًـا بصـدرِه ليقلِّـدني مشـغولاتٍ جديـدة.

وسألني ربِّي عن صَاحِب القيطون ذي العيون الأطلسية:

---

٤١ هل فهمت ما أعني؟

٤٢ نريد شخصاً أميناً.

- كَمْ دَفَعَ لَكَ؟

قلتُ:

- ولا ملّيمْ.

قال:

- بَاهِي.

قلتُ:

- لمْ يدْفع، لكنّه قالَ: أنَا مَانَسَقِمْش.[٤٣]

- وبَاهِي.

عندما سألني، ظننته سيُنصِفني. ظننتُ أنّ العجوزَ وضع عنده أمانةً لأجلي..

وهلْ أنا نبيٌّ مُرسل حتى لا أسُبّه بالتّكعيب؟

- «يبهْبِه دِ...»!

كُلّ ظنٍ جَميلٍ هو بعضُ إثم في جماهيرية الرّملِ. مَن يُدرِك المقاصِد لا يناغِي خواتم المُنى. لقد بدأتُ معه حمّالًا فألزمني مَكنسة قدْر الضّرْبة: مَكْنَسة تقول «أنا، أنا».. بعدها تداعَى بالأوامِر حتى أخرجني إلى العلن «عبْدًا يقْطَع

٤٣ لن أبذِل أي جُهد.

الخَمِـيرة»[٤٤] حـتى أخرجـيني شِـغِّيلًا بارِعًـا في التّقييـس، «بِلِـتّ ويعجِـن»، وذا مهـارةٍ في تَسـييك البـلاط، والعِتالـة، والبنـشَرة، والمُحاسـبة، والتّدريـس، وتشـحين الخُـبز التالِـف في القيطـون، وتَحْمِيـص الكاكاويـة، و، و.. حـين قـرر فصـلي مـن العمـل خرجـتُ مـن عنـده خبـيرًا في كل شـئون دُنيـاي!

كل هـذا بدِينارين ونِصـف في اليـوم، فهـو لـن يدفـع لي أجـرًا ليـوم الجمعـة.

«إيه، ظمْيَانِين ووَابلْ الطّرْفَة فُوقْنَا يَهطِّلْ».[٤٥]

تواتـرت أنبـاء عـن كـوارثَ فيضانـات وسـيول ضربـت السّـودان. الخرطـومُ إمّـا غارِقـة أو عطـشى أو تتلـوّى تحـت مارشـات الجُنـد. النيـلُ يـنزِع غِطَـاء جروفـه ويكـرُب زِنْـدَه في أغسـطُس مِن كل عـام. تماسـيح النيـل الـتي أخافتهـا المَيكَنـة تَتَمطّـى في ميدان المـاء الفسـيح. النّهـرُ في موسـم الفيْـض مُشـبّعٌ بأظـلاف النخـل وكـرّوق الـدّوم وأعـواد السّيسـبان وجـذوع البـوص والحلفا، وكل مـا اقتلعـه المـدُّ مـن حصـاد السـنين. الطّمـي يخنُـق أسـماك الكَانكيـج والدّبِـس. الداشـكوق أبْ سَـنابْ يُبرطِـع في حيضـان الـذُرة الـتي غمرتهـا الميـاه. مُنـذُ عهـد الكْنـدَاكـة كانـت للتّرابلـة أحْبَاسُـهم فـوق هـذا الشـاطئ. سـدود السُّـلطة عنـد الخزانـات في سـنار والرصـيرص وجبـل الأوليـاء وفي الخرطـوم. أحبـاسُ التّرابلـة هـي خطـوط الجـروف المتدرجـة تحـت ظِـلال السُّـنُط،

٤٤ قبيح.

٤٥ مقطع من مسدار النجوم، للشاعر حمد ود شوراني.

أسـفلَ جضـول الجُمّـيز الـتي زرعهـا الإنجلـيز عنـد محطـات النّقـل النّهـري.

الأحبـاسُ عنـد سـكان الجزائـر أن يغطـس طـرف السّـاب في المـاء عـن آخـره. السَّـاب في رطانـة النُّوبـة هـو طـرف الجزيـرة المُنـسرِب مـع التيَّـار والـذي يأخـذ شـكل مثلّـث يتهـدّل مـن أعـلى إلى أسـفل بلطمـات المـوج.

شـيمة المـاء تتلـوّى في صُرّة البحـر وحـول المجـرى تربُـضُ الصحـراء، كأنهـا بلقيـس أُخـرى تكْشـفُ عـن سـاقيها. الطّمـي المُتشـقق كان دمعًـا ذرفـه النيـل عـلى الضفـاف. تلـك هـي خلاصـة رحلـة النهـر الطويلـة مـن عُمـق إفريقيـا.

يفيـض الـوادي كل عـام وتـبرُق بـروق الصّعيـد بالبِشـارة والنّـذارة، ومـع ذلـك يفاجئنـا الخريـف. مـع ذلـك يجـف حلـق العاصِمـة!

- وإيشْ مِنْ كَاكَاوِيّة؟

سـمِعته يُناديـني هكـذا لأضطلِـع بِمُهمـة جديـدة هـي تحمِيـص «المَـرَروة».[٤٦]

توهمـتُ أنـني سـأنتصر لِشـعبنا الأكْحـل إذا قلـت لهـم، إنَّ «هـذا الفـول فُـولِي».

- يا أهل ليبيا.. لِمَ تقولونَ للفول السّوداني كَاكَاوِيّة؟

٤٦ الفول السوداني المقْلي.

وَقـع عليـه سـؤالي، وقـعَ الكُـروز عـلى ثكَنـة بـاب العزيزيـة! امتعـضَ مـن «طـول لِسَـاني» حـتى بَـانَ ازدراء حاجبيـه. اسـتكثر أن يُجيبـني، فسـمعتُ حشْرَجَتـه لنفسـه: شِـينْ يِـبِّي هَـاي العِبيـد «الـزَّ»؟

لا رادَّ لقضاء الله في جماهيريته.

لقـد فـرغ القائِـد مـن بسـط هيبـة الدولـة وطبّـقَ الشّريعـةَ والاشـتراكية، وهـا هـو يسـتريح أخـيرًا بالدّعـوةِ إلى الوحـدة العربيـة وينـادي بتحريـر القـدس، فـوق أنّـه يدعـم مقاتـلي الساندنيسـتَا ونمـور التّأمِيـل.

هـذه أرض المستحيل وقُـدسُ أقـداس الصّحـارى. هـذه مملكة الشُـمّ العرانـين وسـلطنة السّـود الذيـن سيسـودون العالم.

هذا وجهُ الحقيقة سافِرًا.

هذه سُلطة الشّعب التي لا تَفنى ولا تُخلق من العَدَم!

تركتُهـم في خرطـوم الجِن يشـطبون المرحلة المتوسـطة تقربًا إلى القائِـد وإلى لِجانـه الثوريـة. رأيـتُ فطاحِلـة المـشروع الحضـاري ينبطحـونَ أمـام جَبروتـه بعـدَ أن دعمهـم بطريـقٍ ذي اتجاهـين في بَادِيـة شرق النيـل، افتتـح أحدهمـا ولـم يحتسِـب الآخـر.

عنـد السَـاحة الكـبرى بمدينـة الزاويـة، حيـث فاحـت الشـظايا. قـرأتُ لافتـة مكتوبـة هكـذا: «الجـان في كل مـكان»!

لقد نسِيَ المُخضوضِرونَ تلكَ اللّام، فأصَابوا حيث أخطئوا.

تحتَ كمين الشوّالات بدأتُ أفهم الكثير من أدبيات الثورة. قالت الثورةُ إنّ البيتَ لساكِنه وإنّ من تحزّبَ خانَ، وبَاهِي، بَاهِي... هذه الاشتراكية التي تُنبتُ بالدُّهن هِي مُبتغايَ. هذا الوجهُ مِن العدالة الاجتماعية يُريح أعصابي، وغدًا أيّها الشِّبلُ السّعيد سأخرجُ من بيتي الذي تحتله الآنَ. سأخرج باحثًا عن متكأ في «إرمَ ذات العِمادِ»[٤٧] التي لم يُخلق مثلها إلا في طرابلس الغرب. هناكَ سأفترشُ شقّة تُطِلُّ على البحرِ ولن أدفع فلسًا، وسيتقبّلُها قائِدُكم، مساهمةً خالصةً مني ضِمن هذا الشبق الكوْنِي نحوَ تطبيق نظريته العالمية.. هذا ممّا تُشاهد غدًا، أمّا في تِلك السّاعة، فقد كان شِبْلُ ربّي يتمددُ فوق سريري ويُديرُ شيئًا مخمليًّا.

هل أرسله ربِّي لِيتّخذنِي هُزوًا، أم أنَّه «يَبْغِيني» أنيسًا في هذه الرُّطوبة؟

هذا الشِّبْلُ سيرفعُني إلى كشف الصالح العام إن رفعت عليه صوتي، فما العمل يا سيدي «لِينين»؟

هل قيّدَ «كارل ماركِس» شيئًا بهذا المعنى في فائِض القيمة؟

كانت «أُم كلثوم» تكْرُف منديلها وتتهادى بين مقطعٍ إلى كوبليه بآهاتٍ تُقطِّع نِياطَ القلوبِ وصفافير السَّهارى تُجْبِرُها على إعادة النُّوَاح مرّةً ومرّتين.. فجأةً مدّ الشِّبْلُ يده ونزعَ

٤٧ خمس بنايات شاهقة على شاطئ طرابلس.

شريـط «السِّـتْ» مـن الجهـاز وقـال:

- خيركْ «الزَّ» إنْتَ تِسْمع أُم كُلثوم؟

يا ألطاف الله، هذا الأعرابي يَستكثِرُ عليَّ سَماعِي للنّشيج!

قلـت لـه -عَـلَى المَـاشي- حيـثُ إنّ خَـادِم الفَـكِي مَجبـورة عـلى الصّـبر: نعـم أنـا أسْـمع «السِّـتْ» وأشْـدُو مـع القَمَـاري، وقـد كنـتُ عاشِـقًا فيمَـا مَـضَى.

- إيشْ إيشْ؟

- يا زول أنا في عَرْضَكْ.

- شِينْ عَرْضَكْ هَاي؟

كانَ يتفحّصُـني وهـو في خَـدَره اللّذيـذ الـذي كنـتُ أحسـدُه عليـه.. قلـت لـه: يـا شـقي الحَـال، قُـوم مـن عنقريـبي خلّيـنِي أنـوم.

- شين قُلْتْ؟ رُدّها عليّ. إيش «عَنْجريبي» هَاي؟

- يا زول قُومْ، قُومْ تَقوم قِيامتَكْ.

عندمـا كان يَتبطّـح فـوق مرقـدي، طـاف في خاطـري «رُوميـل»، وكيـف انسـحب عجـولًا مـن سـواحلهم دون أن يكتشـف أسرار المـكان.

واحتوشَني الظلام، واختُطَّ في جَبهتي وَشْمُ السهر.

أشرقت شمسُ الشّغيلة دونما هُوَادة.

ربّنا لا تؤاخذنا بما فعل الثُّوّارُ منّا.

بعد قليل يأتيني ربِّي ليُوبِّخَني: خيركْ يا سُودَاني، ما زَال قَاعِدْ رَاقِدْ؟

ما حِيلتي يا أهل الله، أمام هذا التّناص؟ فالعمّال البولنديون نَسوا زعيمهم النّقابي لِيش فاليسا، وصدّام حسين الذي أعلن نسبته للدّوحة النبوية، وَضَع مستقبل البعْث تحت رقابة المُفتِّشين الدّوليين، وفي الداخِل خَفَتَ بريق كمالترباس، شَادِن المُعلّقة الإنقاذية الأُولى، وذاعت «كيْتَة»[٤٨] قيقم!

تمدّدتُ فوقَ غُربَتي أُعاينُ سَرابِيل المطر. عادت الذاكرة إلى أيامٍ تبدو طارئة. بعد تفرُّق الأحباب زُرتُ قرية «الجابرية» لحضور عُرس إحدى حفيدات جدّتي حَدّادِية.. هل بنات بَلدي جميلات حقًّا، أم يتكّشَّفْنَ هكذا مع نَقْرَشة الطَّنابير؟

في الحَفل انفجر العراك بين عاشِقيْن. كانت سمراء تُلهِبُ الحماس. كانت قصبة يُمايِلها النّسيم وترقص الدّليب دونَ مخارِيق.

---

٤٨ إيقاع أفريقي شائع في شواطئ النيل الأزرق.. ترباس وقيقم هما أشهر من تغنى لـ «ثورة الإنقاذ».

عـمّ الهـرج في الـدّارة فأمسـك أحدهـم بميكروفـون الحفـل وقـالَ إن الليـلَ لـم يـزل طفـلًا يحبـو.. أذكـر حُجّتـه هـذه الـتي أعـادَت الميـاه إلى مجاريهـا.

ما الذي جاء بي مِن ذاك الدِّفء؟

تواءمـت مـع قـدَري ومـع زَعيـق رَبِّي. طُفـتُ الـرُّبى والوِهـاد مـع السِّـتْ وهـي تشـدو: هـذا فـؤادي فامتلـك أمـره!

يـا إلهـي، لِـم تقـع الضّحيـة في عشـق الجـلَّاد، وكيـف عـرِف الشـعب طريقـه إلى ميـدان التحريـر في الخامـس والعشريـن مِـن يناير، ولمـاذا يهتفـونَ في قلـب القاهِـرة بسـقوط «الريِّـسْ» الـذي أعلنـوا عليـه الحُـب؟

قـال قائِدهـم إن المـرأة أُنـثى وإن الرجـل ذكـر، وبعـد سـنواتٍ مـن المُدابـرة قـالَ شـيخُنا الـذي في الخرطـوم: إن غُـزاة أديـس أبابـا أبيـدوا عـن آخِرهـم، وإنّـه اعـترضَ عـلى قتـل النّفـس الـتي حـرّم الله إلا بالحـق!

قبـل أن يتمطّـى الشِّـبْلُ في مَخْدَعـي كنـتُ أقرأ لنيكـوس كازانتزاكي. زُوربَـا كانَ نديمـي، وليـسَ ممـا يوجِـبُ غضـب الآلِهـة أن تَدعـوكَ امـرأة إلى بُحـيرة الخلـق.. وضعـتُ مِزمـاره جانبًـا وأشـعلتُ دُخانًـا كانَ يروقني.

وأنا في تلك التهاويم سمعتُ طرقةً على الباب..

يـا أللّه، هـل تمكّـن جِهـاز الأجهِـزة مـن الوصـول إليّ في هـذا

المنفـى، أمْ هـي اللِّجَـان الـتي في كُلّ مَـكان؟

مـا الـذي أتى بهـذا الغُـلام في تلـك السّـاعة مـن شَـهوات اللّيـل، فهـذا بيـتي الـذي امتلكتـه، بموجـب فِرمانهـم الأخـضر؟

هـم يقولـونَ إنّ البيـتَ لِسـاكنه، فمـاذا أقـول وأنـا الغريـب الـذي لا يحـق لـه الاسـتنكار؟

دعـني إذن أسـتوضِحه بطرائـق السـودانيين في التّمليـس: أيّـا شـقي الحـال مالـك في هَوايـد الليـل، شِـنْ جَابَـكْ ليَّ؟

أُقسِـمُ أنّـه لـن يفهمـني، ولكنّـه أيضًـا لـم يُمهلـني.. لقـد دخـل غرفـتي دون اسـتئذان وتمـدّد فـوق السريـر، ووقفـت أنـا تحملُني رِجـلايَ عِنـد مِـصراع بـاب النظريـة الخاتمـة لفصـول التاريـخ!

ماذا أقول وهؤلاء الخُضر لا يُسألون عمّا فَعلوا؟

وكأنـه قـرأ أفـكاري، إذ قـالَ بعـد أن أخـذ نفَسًـا عمِيقًـا ممّـا كانَ يروقـني: خـيرك يـا سُـوداني، إنـت تِعتقِـد نفْسَـكْ ابـن بِـلادْ؟

- نعـم أيّهـا الشِّـبْلُ السّـعيد. كانـت لي بـلاد عزيـزة لكّنهـا جَـارت عـليَّ، وهـذا لا يَهُـم الآن..

ثـمّ نفـثَ الغُـلام دخـان «التّحبيسـة»[٤٩] في وجهـيَ الـذي أرهقتـه الشّـوَاويل. كان حـاضرًا عندمـا اشـترط عـليَّ أبـوه إشـعالَ الفُـرن مـع صيحـة الدّيـك.. مـا عَسـايَ أقـول لـه كي يُخـلي سـبيلي، بـل

٤٩ سيجارة حمراء ذات توقيت وطعم خاص...

مـاذا أقـول لشُرطـة المـرور، إذا دَاهمَتْـني معَـه في هـذا الهزيـع؟

قلت له متوسلًا: عليك دِينكْ قوم خلّيني أنوم.

اسـتنكر الشِـبْلُ رجـائي وقـالَ غامِـزًا: خـيركْ يـا عِبيـد، تَعـالَ قَعْمِـزْ، هيّـا قَعمِـزْ، هيّـا..

- أقعْمِز كيف يَعني؟

- نِبِّو نِهَدْرِسُو مَعاكْ.[٥٠]

- تَهدْرِسْ مَعاي في السّاعة دِي؟

- إيه، شِينْ فِيها؟

- يَهدْرِسْ «دِ...»!

ثم إنني بعد ذلكَ رفعتُ صوتي وشَفيْتُ منه غَليلِي:

- يـا سـجم الرّمـاد تهـدْرِسْ معـاي أنصَـاص اللّيَـالي، وأنـا مَهَروسْ طـول اليـوم في كوشَـة أَبُوكْ؟

- غير تعالَ يا سوداني، هَيا تعالَ «الزَّ».

- تهدْرِس مَعاي؟

-إيه، شين فيها؟

---

٥٠ نتآنس معًا.

- «أنا قدْرِكْ ولّا لَحمْ سَدْرِكْ»؟[٥١]

ولـم يعبـأ بي، بـل أخـرج مِـن تحـت سُـترته شـيئًا مخمليًّـا وقـالَ لي بـين خيـوط الدُخـان: تَـرَى يـا سُـوداني، عِنْدكُـم في بِلادْكُـم، بَناوِيـتْ بَاهيـات؟

٥١ لستُ في مقامِك.

٥

تفاصيـل الحِيطـان العتيقـة في «روكـسِي» تُذكـرني بعهـود المماليـك وعِبـاءات الفاطميـين وبقَلنْسَـوات الـتُّرك. السُّـقاةُ والشـجرُ المكحـول بعـوادِم السـيارات، نـداءاتُ الطبيعـة كلّمـا لاح الكرنفـال، توسُّـلات الضُعفـاء ومسـحوبات الطّبّـالي عـلى الطُّرُقـات، النقـوش الباهِتـة وبضاعـة العطّاريـن، كلّ ذلـك يُحيلُـني إلى المـاضي، إلى طقاطِيـق «عبـدُه الحامـولي».. يقولـونَ إن تلـك هـي «مِـصرُ الجديـدة»، مـع أنّهـا قديمـةٌ جـدًّا!

كنـتُ هنـاكَ أصطـادُ الغنَـوجَ، وأتغـشّى مـزَارات الأوليـاء، وأقـرأ الآيـات بأحكامهـا التجويديـة، وأتأمّـلُ نقـوشَ الفـوارِس عـلى شـواهد القبـور. في المدينـة القديمـة حفِظـتُ مواجِـد لابـن الفـارض، وشرِبـت نرْجِيلـة ذات حَجْـرٍ وسِـيور، وكرِهـتُ النُسـخة الـتي يطرحهـا المرشِـد العـام.

كم أعشقُ هذه المدينة؟

أعشقها كأنثى كامِنة في الخيال. أُنثى وهيطة مثل مجلدات الاشتراكية العربية التي آمنتُ بها في أيّام الصِّبا. القاهرة تبدو مُتحجِّبة بما يُذاع في جامع الفتح عن عذابات يوم القيامة. النِّداءُ ينبعثُ مِن كل مآذنها فيغسِل ما رَانَ على قلبِي بما صَنَعت يَداي. حجابُ القمجِيّات لا يكْبَحُ جِماحهنَّ إذا ما هطلَ المطر، والسّحْلبُ ليس بريئًا في «قهوة جيجي»!

في سينما فاتِن حمامة بالمَنْيل شاهدتُ فيلم «حسن ومُرقُص».. صلّيتُ جُمعةً واحِدة مع الجماعة السلفية في مسجدهم بميدان التحرير.

النّاس ديل ما بينفعُوا مَعَاي.. لن أزور هذا المكان مرة أخرى، فقد كدّرَني إجهاشهم بالبكاء. توبيخاتهم تخنُقني. إنّهم يجعلون مني الحائط القصير.

النّاس ديل مَا بينفعوا مَعَاي.. الشرور -في عقيدتهم- تأتيها الرّعية!

سودانيو «العَتَبَة» يتصيّدون حديثي العهد بالمدينة. أبحثُ أنا عن «ياقوت العرش» فلا أجِدُ غيرَ «السّحْ الدّحْ امْبُو».. كانت أغنية الموسم في قاهرة ذلك العهد هي: «أعمِلْ لكْ إيه سهّرتِني؟».

عندما تفجرت المظاهرات في الخرطوم وكانَ هُتافها «يا خُرطوم جُوطي جُوطي»، سألتني مَدام جِندي: إيه دَا، إيه دَا؟

قلت: «دِي مَاهَا شَبّورة وتَقِيفْ».[٥٢]

- يعنِي إيه، مِشْ فاهمة؟!

- هـذا ليـس نِظامًـا عسـكريًّا مثـل بقيـة الأنظِمـة حـتى نعمـل عـلى إسـقاطه عـن طريـق العمـل الجماهـيري الـدؤوب.

- برضو مِشْ فَاهمة!

- ولا أنا!

هـذا «رمْسِـيس» يطـلُّ فـوق رؤوس العابِريـنَ وأنـا أبحـثُ عـن مِـصرَ الـتي في خاطِـري. عنـد مدخـل شـارع ٢٦ يوليـو لمحـتُ سـودانيًّا واقفًـا هُنـاكَ مثـل الكلمـة الشـاذة. ضيَاعـه يحـكي النهايـة المحتومـة لعـصر الانفتـاح.. هـل هـو «زول»، أم مُـوالٍ للنظـام؟

كيـف تسـتحضرُ يـا مـولايَ روحَ «ذي النّـون المـصري» فينبثـقُ لـكَ «الشّـاطرُ» مـن صناديـق الاقـتراع؟

أغمـض المسَـاء أجفانـه وعـلى ظهـري حقيبـة لففـتُ داخلهـا صـورةَ مِحـراثٍ قديـم. عَصـارِي الغربـة تلقيحة[٥٣] مـن الذكريات.

مـع الدّخاخِـين، ومـع وَحْوَحـة الهَرِيسـة عـلى الكُسْـكُسِي، أوصلـتُ الشّـبْلَ ابـن الـرَّب إلى موضِـعٍ مِـن الشـفافية يجعلُـني

٥٢ من قصيدة للشاعر «حمّيد»، يتغنَّى بها الفنان مصطفى سيد أحمد.
٥٣ عاصفة مِن غبار ومطر.

أُناديـه عـلى رؤوس الأشـهاد: بـرّا[٥٤] يَـا عِبيـدْ!

في ذاك الضُحـى كان يُرغِـي أمامـي وأنـا مشـغولٌ مـع الزّبائـن ببيع الخُـبز الحـار. قلـتُ لـه ومـا كنـتُ أعلـم أنّ ربِّي يقـف عـلى مقربة مـني. لـم يكُـن عـلى مَقربـةٍ، إذ كانَ ورائي مبـاشرةً يرقُـبُ الحُجَـج القَائمـة بـينَ ثقَافَتـين.. عندمـا قلـت لـه: عـدِّي يـا عِبيـدْ، امـرُق مِـن قدّامـي خليـني أشـوف شُـغلي.. عندمـا قلـت ذلـك، أخـذ الشِّـبْلُ ضحكـةً مـن نِسـلِ ابتسـامة أبيـه الـتي أخفاهـا عـني في وقـارٍ زائِـف.. أخفَاهـا عـني بمعاينـة عِـدّة الشُّـغل!

في سِرْت -مدينــة القائِــد- رفــض ميلــود تنصِيــبي في أي عمــلٍ بالصيدليـة مُعلِّـلًا ذلـكَ بـأن «السـوّادِين مـا يِبُّـوشْ يِخْدِمـوا».

- أنـتَ لـم تخْتَـبِرني، وأنـا لا أعـرف طَبيعـة العمـل الـذي تحتـاج إليه.

- آنِي نِعْرَفو السّوّادِين.

- تعِرف شنو عن السودانيين؟

- السّوَدانة هَاذَايَا، لمّا يِجوا لِبْلادْنا مَا يِبّوشْ يِخْدِموا بُكْلْ.[٥٥]

- يعني نِحنَ جَايين لِيبيا عَشان نِتْفسّحْ فيها؟

- والله ما أدرِي.

---

٥٤ انصَرِف، ولا تُرني وجْهك.

٥٥ لا يرغبون في العمل نهائيًّا.

- ليشْ مَا تدْرِي؟

- حِنّـا نِعْرَفـو السُّـودَاني أول مـا يِطِـبّ فِي بِلادنـا، يِشـتري رَاديـو «قَاريونِـس»، ومِرايـات.

- إيشْ مِنْ مِرايَات؟

سـألته هكـذا، فقـالَ إن المِرايَـات هـي النّظـارات، وقـد كان يعنيـني بهـا، حيـثُ لا يُـرَى أعمَـى غـيري في تلـك الضّاحِيـة مـن العالـم.

- ولكنّ..

- إيش فِيك؟

- لكن نظّارتي هذه قرّرها لي طبيب العُيون.

ردّ عليَّ بسرعة كأنّه يتخلّص مِني:

- كُلّ السوّادِين هِكِّي.[٥٦]

- نظارتي دِي أنا لابِسها بموجِب كشف طِبِّي.

- إيه، إيه، كُلّ السوّادِين يِقولوا هِكِّي.

ولجـأتُ إلى خليـج الـصِّراع. اضطـرام المـوج يذكّـرني بمـا يُقـال هنـا صبـاحَ مسَـاء، عـن الأطالِسـة الذيـنَ نفَّـذوا ضربـة جوِيّـة عـلى ثكنـة القائِـد في بـاب العزيزيـة، وكيـفَ أنـه فاجأهـم

٥٦ يريدون أن يكونوا هكذا.

بعدهـا بصريخـه في الإذاعـة، لاعِنًـا دِيـن أمريـكَا.

عنـد شـاطئ بنغـازي يُرابِـطُ شـبابٌ سُـمرٌ يلبسـون الكدمـول. يَدسّـونَ «البُوخَـةَ» بـين دُغـل الشـجيرات ويبيعونهـا بأمـارة التسـليم. أراهُـم يقفـونَ بعيـدًا عـن «المُنكَـر» وعندمـا يقبضون أثمانـه يدلّـونَ عليـه شـارِيه وشـارِبه... يطبُـق[٥٧] الشّـارِي غرْشَـةَ السُّـكْرِ مـن تَحـت خِبائهـا ويغـوص في الدُّعَـاش.

المجدُ للآلافِ تهدُرُ في الشّوارِعِ كالسيول.

المجـدُ للسُّـمر الذيـن قَفـزوا فـوقَ تَقارِيـع بائِعهـا وحامِلهـا والمحمولـة إليـه.

كُلُّ شيءٍ حرامٌ في جماهيرية الرّمل، عَدا الهُتاف.

كلّ أعوَج مُمكن ويجوز.

كل مَا تُسْقَى تُسْقَى، عدا عذوبة النيل.

كانَ الحبيـسُ قـد خـرج مـن سِـجنه وقـال في عـرس الشـهيد: جِئنـا مـن عُـرسٍ في السـماء إلى عُـرسٍ في الأرض، وعندمـا أخفـى تلامذتـه آثـار العُـدوان الـذي اقترفـوه في أديـس أبابـا، قـدَّم لهـم موعِظـة مـن آيـات الله، وآيـات الله تهُـدّ الجبـال.

كان الشِّـبْل يُهدرسـني بمـا أطيـقُ وبمـا لا أُطيـق. قـال لي إنـه يرغـب في السـفر معـي إلى السّـودان. كان يُلـح عـليَّ أن أُحدّثـه

٥٧ يحتضن.

عـن بناوِيـت بَلَـدي، وعـن كيـف تكـون المَعْرَسـة، وعـن كيـفَ يَتَبلّـم عَرايَانـا.[٥٨]

ضبـاب الشِّـتاء يغلّـفُ حقـولًا داكِنـة الخُـضرة في الأُفـق، وبيـني وبـين الشِّـبل حُجْـوَة سيسـمعُها ذات يـوم عـن «فاطنـة السّـمحة».

مِـن يومهـا أقلـقَ الشِّـبْلُ راحَـتي وظـلَّ يُلاحِقُـنِي كي أحـكي لـه تلك الحِكَايَـة.. حدّثتـه أكـثر مِـن مـرّة: يـا سَـجَمْ الرّمـاد، فاطنـة دي مـش جميلـة بالمعـنى الحِـسّي، دي زولـة سـمْحَة طَبِـعْ.

لكـن الشِّـبْل كانَ قـد رسـمَ لفاطِمـة في ذِهنـه «جَمَـلًا قـدْر اللّيلـة وبُكرة».[٥٩]

كان يضاغطـني في الفُـرن وفي سـاعة الهَجعـة، وحـين ألـوذ بدفاتِـري، يجذبـني مـن شـعري كأنـني خـروف يُشـتَرى في زريبـة قندهـار.. كأنـني ذَبيـحٌ يُشـترى مـن السـبّابي، بعـد التأكُّـد والتأكيـد، أهُـوَ «تَـنِي أمْ رَبَـاعْ».[٦٠]

- يا سوداني «الزَّ»، قول السّالفة.

- أقول شنُو يا زول؟

- قول لِي قِصّة فاطِمة الجميلة.

---

٥٨ كيفَ يخفون وجوههم.

٥٩ جملًا ضخمًا.. العبارة لدى السودانيينَ تحمِل إيحاءات فاضِحة.

٦٠ عمر عامين أم أكثر.

- يا بَنِي آدم دي حَكاوِي حبّوبَات.

- لا تقول لي حَبُّوبات وما أدري إيش.

- يـا عـربي يـا مُزعَمـطْ، دي حدّوتـة تُحـكى للصبيان حـتى يأخذهم النُّعاس.

- آني نِبُّو نِسمعُوها.

- تسمع «حُجْوات البُطَان»؟[٦١]

- إيه، أنتَ وعَدتني تِحكِي، ووعدُ الحُر دينٌ عليه.

الآنَ، ومـن أجـل فاطمـة السّـمحة بِشـعرِها الطَّويـل «الوَاقِـع في البِـيرْ»، يُفـرِجُ هـذا الشِّـبْل عـن صـك البراءة الـذي يُصفِّفـني بـه في خانـة الأحـرار! قلـت لـه، بمـا وسِـعَني التنهيـدُ: يعـني إنـتَ خـلاص حرّرتَـني، عَشـان أوفِي ليـك بالوعـد؟

يبـدو أنّـني فاجأتـه بهـذا.. يبـدو أنـني فاجأتـه بمـا لا يطيـق مـن ثَقافـة الاعـتراف، إذ نظـر إليّ بإشـفاقٍ يسـتبطنُ هـواني عـلى نفـسي، وعـلى ثـورتِي ودولـتِي. كان وجهـه يقـول كلامًـا مثـل هـذا، بينمـا كان لِسـاني يترجِـم لـه المعـاني حـتى لا يفوتـه منهـا شيء: إيـشْ مِـن وَعْـد وإيـشْ مِـن حرّيـة، يـا زول أنـا «عَـبْ»[٦٢] عَدِيـلْ كِـدَه!

---

٦١ حواديت الأطفال.

٦٢ عبدٌ أسوَد.

٦

الحِكمة التي يؤمنُ بِها محمد الحسن، تاجِر الخُضار هي أن الحُكومة ما بْتِنْقَدِر، لكنه يتمسّك بالصمود في وجهها ويؤكد إصراره على ذلك بِعبارةٍ يُردِّدُها كثيرًا: صحِي الدُّنيا ما بتْلَحِقْ والحكومة ما بْتِنْقَدِر، لكِنْ بِنَكَابِسَا!

يبدأ ودّ الحسن يومه في السوق، حتى إذا دقت ساعة العاشرة، لمْلمَ الحصّالة وقال لابنه عطيَّة، الذي كانَ أشهر فاقد تربوي في كمبو المحالِج:

- أنا مَشيت يا «مُخّ الرّقَبة»[٦٣] بِيع بايِت الخضار دا ومَصْرِفْ أُمّك، لحدي ما نشوف بكرة، حيحصْل شنُو في البلد دي.

في بيت الزّينة يفِك الرِّيق بالجردل والقَطَّاع، بعد أن يكيل عاطر الثّناء على سِت البيت، فيقول لها بين ثنايا حِكمته في مُعافرَة الدنيا والحكومة: أمَان الله إنتي أهلِك لو ما سمُّوكِي

٦٤ أهبل.

الزِّينـة، مـا كان حيَلْقـوا ليـك اسـمًا تـاني.

بتلـك الطريقـة في العـزف المُنفَـرِد تمكّـن وَد الحسـن، مـن تشـكيل قاعـدة جماهيريـة داخِـل بيـت الزِّينـة. كان يطـرق ذات المواضيـع ويُلبِسُـها كل يـوم طقْمًـا جديـدًا، مـن نكهـة العيـش الفَايِـر.

قبـلَ أن يأخـد زاويتـه داخِل البيت، كان يمسح وجـوه الحاضرينَ لـيرى إن كان بينهـم غريـب أو لَغَـم. يبـدأ الشَّـقِيق مُرافعاتـه بصيـغٍ تسـتوعب تطـورات الأحـداث السياسـية الجاريـة. كان يقـول الحِكَايَـة عـشرات المـرّات ببـوحٍ جديـد، ويحلـو لـه أن يتـكئ عـلى شِـعبة الرّاكوبـة ويُناغِـم النّدَامـى:

- حكومة نميري كانت بِتْسوِّي حَاجَاتا على عينك يا تاجِر.

- أنا شُفتَهُم، في البِداية كانوا أولاد بَلَدْ جَدْ جَدْ.

- لكن الجماعة ديل، دايرين مِنّنا شُنو؟

- البلد دِي ماشّة على وين؟

- نـاس مايـو لمّـا ربَّنـا بَلاهُـم بالجماعـة ديـل، نشَّـفوا البلـد مـن رِيحـة الـشيء البِشْرَبوهـو..

وقـد يذكّـره أحـد روّاد القعْـدَة، أن هـؤلاء يريـدون إدخـال دولـة السـودان إلى الجنّـة، لكـن ود الحسـن، يمـضي في سِـياقاته:

- الجماعـة ديـل شَـايلين البُقّـة[٦٤] في عرباتهـم الحايمـة دي، يكركِعـوا سـااااي والنـاس عَطِيـش.

وينفُذ مِن هذه إلى أخرى:

- زمـن الأحـزاب كانـت الحصَّالـة تكفِّيـني أنـا والمَـرَة، يـوم الليلـة الحصَّالـة كلهـا مـا بِتلْحَـقْ تَفِـك ليَّ الرِّيـق.

ويقارِن بينَ ماضٍ وحاضر، مُستشهِدًا بحماره:

- زمَان -وحُمارِي ده شاهِد- كان الدّرب مفتوح عديل.

- الجماعة ديل مُتخصِّصين سُدود وكَباري.

- الشعب دا، لازِم يطلع الشّارِع.

وهكـذا يذهـب محمّـد الحسـن في تفكيـك دعَـاوى ثـورة الإنقـاذ بنـدًا بنـدًا. ويسـتنتِج بعـد ذلـك الخُلاصـة:

- الشّغلانة دي نهايتها قريبة جدًّا.

- الجماعة ديل مستقبلهم أسوأ مِن مستقبل ولدِي عطيّة دَا.

ثـم يدعـو نُدمـاءه إلى مشـاركته الـرأي بقولـه: تعرفـوا حَاجـة اسـمها الفاقـد التربـوي؟

كنـت أُراقِبـه مِـن بعيـد لِبعيـد رغـم أنّـه كان يَحشِـد نَهـاره مـن أجـل التغيـير، ويُغـادِر بعـدَ المقيـل منحـدرًا بجانِـب الكَنَـار

٦٤ الخمر.

قاصِدًا بيتـه، حيـث تسـتقبله زوجتـه هنـاك بالمـوَّال المعـروف.

يُنهِـي الشَّـقِيق يومَـه في القابِلـة بجـردٍ لأوّل الزمـان وآخـره، وبـين هـذا وذاكَ يـردد مقولتـه الشـهيرة عـن الدُّنيـا والحكومـة.. كان اتِّحاديًّـا ومِـن ثُلّـة المُقرَّبـين لـدى «الشّريـف حسـين الهِنـدي».. كانَ مناضِـلًا قَوِيَـت شـوْكَته بالكـدْح والمُطـاردة والتعذيـب في المُعتقـلات، لكنـني كنـتُ أرقبـه ولا أقـترِب منـه، إذ صاغـت لـه غلـوائِي صـورةَ برجـوازي صغـير.

شـاعَ في كمبـو المحالِـج، أنّـه يمتلِـك طاقيّـة الإخفـاءِ، وأنّـه يـأتي أفعـالًا خارِقـة، ويـصرِف أكـثر مـن مدخولـه، وأنـه شُـوهِدَ مِـرارًا في معسـكرات اللُّجـوء عنـدَ نِقـاط الحـدود.

بعـد أيـام قليلـة مـن سُـقوط بغـداد أقبـلَ عـلى بيـت الزينـة زائـر غريـب، جلـسَ الغريـب صامِتًـا يسـتمع إلى مُهاشَـمات ود الحسـن ضـد الثـورة. وقبـل أن يصـل إلى خِتـام مرافَعـة اليـوم بالإشـارة إلى ابنـه -الفاقـد التربـوي- فاجـأه الزائـر بنقطـة نِظـام:

- إنت يا زول طوّالِي في جِنْس الحَالة دِي؟

ردَّ محمّد الحسن بحسم:

- أيـوه، نحـن طـوّالي مُدوِّريـن وعارفـين، إنّـو الحكومـة مـا بْتِنْقَـدِر، لكِـنْ بِنَكَابِسَـا، بِنَكَابِسَـا!

- تكَابِسَا كيف وإنت رَاكِبْ فِيلْ؟

هنا خرجَ الشّقِيق عن طوره وقال:

- شـوف يـا زول هـووي، أنـا راكِـب فِيـلْ بي عَـرقْ جَبـين، بقُـروشْ حَـلال مُـشْ بأمـوال الشّـعب...

و، و، و.. وعُـدتُ خائبًـا مِـن غُربـتي.. كانَ أهـلي في «تنْقَـسِي» يعتقـدون أنـني غـدوتُ مغتربًـا يُلاعِـب الـدُّولار في ملاطِـم الرأسـمال.

كيف أذهب إليهم خالي الوِفاض؟

كيف أعود إلى أُمِّي وأنا «مُعلِّم الله»؟[٦٥]

لـن أعـود، ولـن تغلبـني العِيشَـة في الضهـاري. في كمبـو المحالِـج طرقـتُ بَـابَ زَميـل. بعـدَ اجـتراع الذكـرى وتقليـب الخيـارات المُمكِنـة دبّـرَ لي العمـل متعاونًـا في مدرسـة البنـات الثانويـة.

قال مُتَهكِّمًا، وكأني تغيّبتُ من السودان دهرًا كاملًا:

- الجماعـة ديـل غـيّروا أسـماء المـدارس بأسـماء للصّحابـة والتّابعـين، وتابِعـي التّابِعـين، وتابعيهـم بإحسـان...

- هـل صحيـح أنّهـم أعـادوا افتتـاح المـشروع الـذي أنشـأهُ الإنجلـيز؟

- المشروع براهو؟

---

٦٥ لا أملُك شيئًا.

حـكى لي الزّميـل طُرفًـا مِـن الحِكَايَـة، وحـذّرني مـن الاحتـكاك بعضويـة «التنظيـم الشـعبي» الـتي ترصُـد مـا يجـري في الحـي.

وضعـتُ رأسي في مِسـند البلـد. حُظيـت في مـيز المعلِّمـين بفـرشٍ مـن القُطـن طويـل التّيلـة وبنُزهـةٍ في العصـاري فـوقَ ترعـة أبـو عِشريـن. تسـاقَطت الأيـام وتعرّفـتُ ببُـطءٍ عـلى الـدُّروب الـتي اقتنـص منهـا أخبـارًا طازجـة مـن جـوف مُـدن العاصمـة الثـلاث.

في كمبـو المحالِـج، حيـث كان ود الحَسـن يعـزف لحنـه القُرمُزي، وصلتـني طراطيـش كلامٍ عـن أن هنـاك صِراعًـا في قمّـة هـرم النظـام، وماخسّـانا.[٦٦]

الـدّرس الأول في الغربـة: تمـرُق مـن بيتـك حزيـن، تـلاقي الفـرح ويـن؟

القاهِـرة مدينـة لهْلوبـة تحكُمهـا غَمـزات العـشرة بَلَـدي. صـور المُمثِّـلات والرّاقصـات هـي بعـضُ سـلوى عابـري السـبيل. أول مـا رأيـتُ، رأيـتُ في شـوارعها «سوسَـن بـدْر» كأنّهـا تُغطـي برمـوشٍ طويلـةٍ بـؤسَ البائسـينَ في حـي شُـبرا. هـذه الشـوارع أُضيئـت زمانًـا بفوانيـس الرومـان والفرنسـيس والأرنـاؤوط.. هـذه المدينـة هـي مِدخَنـة الـشرق وموئـل أزماتـه العويصـة.

- هل الله موجودٌ بالقاهِرة؟

عنـد كنيسـة «سَـانت فَاتِيمـا» بمـصر الجديـدة عَـبَرت أُنـثى

٦٦ لا يخُصّنا، أو لا شأن لنا بذلك.

قوقازيــة اللّــون. جيدهــا ماحِــل وصدرهــا رحيــب. حَاجِباهــا يُحلِّقــان فــوق جبينهــا كجناحــي طائــر.. عِنــد الــوداع تبــدو المدينــة أحــلى مــن أي وقــتٍ مــضى.

التقيتــه في حمّامــات القبّــة. كان مظهــره مضلــلًا. كان تعيسًــا معــذَّب الفــؤادِ أو هكــذا بــدا.. كأنــه مــن ثلّــة الحــرّاس الذيــن أُوكِلَ إليهــم تعذيــب النقابيــينَ في بيــوت الأشــباح. بعــد ســنوات ســألتُ مُرتَــادِي ميــدان العَتَبَــة، عــن خالِــد شَــهاوي. قيــلَ إنــه اختفــى بعــدَ غــزوة أديــس أبابــا. قيــلَ إنــه هاجــرَ إلى قــارةٍ أُخــرى ضِمــن برنامــج إعــادة التوطيــن. قِيــلَ إنــه ضُبِــط متلبّسًــا وعارِيًــا. قِيــل إنــه كانَ عينًــا للسّــفارة عــلى القادمــينَ مــن الســودان... لا تبتئــس يــا حَبَّــة. كل واحِــدْ ليهــو في تَاريخــو مَــاضي.[٦٧] كلنــا ينــئْ بمــا اندثــر. كلّنــا يرجــو مــا يُبــدد كَــدر الــرّوح. كلُّنــا -أنــت وأنــا- ليتنــا ننــسى لِنَعيــش.

دخلنــا معًــا مطعمًــا في ســوق التّوفيقيــة. نــادِل المطعــم جعلنــا نُصــبَ عينيــه. لا شيءَ بِبــلاش. حــتى الشّــطّة هُنــا لهــا ثمــن.. قــال النّــادِل: وأنــت تــأكل الحَــواوشي فإنــك بســندوتش واحــد، تكــون قــد تناولــت كل البروتــين المُعــترف بــه دوليًــا.

يا لها مِن دعاية، ولكنّ، هل للجوعى حظٌ في جهاد النِّكاح؟

متَى كان المغرور يحتاجُ إلى ضراعة الدُّعاء؟

هــذا حــالُ الدنيــا. للتّجريــب أوزار يحتَملُهــا الثــوّار. الشّــوارعُ

٦٧ مِن أغنية للفنان عُثمان حسين.

تتجمّـلُ لأهلِهـا، والغربـاءُ يلفحهـم الـبرد، وأنـا لا أنَـام. قـرأتُ روايـةً بهـذا العنـوان تحـت شـجرة «ود لقّـاي»[٦٨] طِيلـة السـنوات الـتي ضاعـت مـني في جماهيريـة الرّمـل، لـم أرَ ثوريًّـا يُمسِـك كِتابًـا أو يأخـذ مَقِيـلًا.

التسـكع في شـوارِع القاهـرة موهبـةٌ أتحـاشى بهـا طقْطَقـة صاحِـب الميكروبـاص. وجدتهـم في النّزع الأخـير يزهقـون أعنابًـا غرسـها الغُـزاة في حشَـا «المنصـورة». أينعَـتْ خمـر الأغاريـق في رؤوس الغِربـان السُّـمر. أنـا لا أتعاطـى المُنكـر طمعًـا في السّرمد. لا أكـرُفُ الفـرح المُعبـأ في زُجاجـة. لا أعـافُ بنـت الشّـعير، لكـن قـد جَـاءني مـن العِلـم مـا لـم يأتِـكَ، فانظُـر مـاذا تَـرى.

أشرقـت شـمسُ فراعِنـة الأُقـصر بنـا فـوق الحقـول، ورويـدًا رويـدًا تكاثـرت البِنايـات، وبعـد قليـل يزدحِـمُ الفضاء بالإسـمنت وتطالعـني لافِتـات «صِيدنَـاوي وشَـمْلا» كآخـر معاقِـل الحِقبـة النّاصِريّـة.

هـذه محطّـة «رَمْسِـيسْ»، رأيتهـا كثـيرًا في أفـلام «تحيّـة كاريوكا». بارحـتُ الرّصيـف بسـلالم متعرِّجـة، إلى أسـفل إلى أعـلى، وفجـأةً ألفيـتُ نفسـي في الزِّحـام. عنـد مدخـل فُنـدق «أبـو الهـول» نزعَ مـني مُوظـف الاسـتقبال جـواز سـفري، كمـا يـنزع الجـزّارُ كبِـدَ ماعِـز. لـن أسـافر مـن هنـا إلا إذا اسـترضيته، فجـواز السّـفر كالوضـوءِ لا يصَـحُ التّجـوالُ إلا بـه.

---

٦٨ نوع من التّمر.

رِفـاقي غابـوا عـن الوعـي. رفـاقي لا يحفلـونَ بِـك إلا حـين تـأتي التحويلـة. أنـا في هـذه المدينـة محـضُ هجّـاني مفتـول الصـدر بطربـوشٍ قاتـم.. أنـا إخشـيديٌّ يحتمـلُ شـتائم المتنـبي الـتي صفـعَ بهـا نواطـير مِـصر في زَمـان الشِّـعر الجميـل. ولكنـني في قـرارة نفـسي، أعشـقُ أحمـدَ بِـنْ الحُسـين، الـذي قـال لكافـور: وَمِثلُـكَ يُـؤتَى مِـن بـلادٍ بعيـدةٍ!

وهل هُناك بلدٌ أبعدُ لِمِصرَ مِن ذاك السودان؟

هل بين هؤلاء، مَن هجر وطنه بحِزمةٍ من سَفاسِف التّراب؟

ابتعـدتُ وئيـدًا مـن فوهـة النَـارِ وقفتُ قبالـة العجـوز الأطلسي صاحـب القيطـون. مـاذا يريـد أعـرابي عتيـق الخيـال مـن غريـبٍ باهِت الحَشـا؟

عجـوزٌ عـلى حافـة القـبر ومـع ذلـك لا أمـانَ مـن خطـره. في مِثـل هـذه السِّـن يخـاف السـودانيون المـوت. في مثـل هـذا العُمـر يخافـون الله. هـذا أوان الضّراعـة والدّمـع السّـخي، ولـولا أنّ الشّراكـة في الإثـم أمـرٌ شـائع الاحتمـال لكنـتُ أسـمعتُه هاتفًـا مـن أعمـاقي، لكنّهـا غُربـةٌ بِنـت أُمّهـا لا يُجـدي فيهـا الأمـلُ. بمحـض اختيـاري سـأُذعنُ لأوامـر هـذا الشِـيباني. عمّـا قريـب سـيرحل عـن هـذه الدُّنيـا. دَعـه إذن يَمـضي إلى هُنـاك ببعـض شـقائي. ليكـن عَـرقي في هـذا الشـتاء شـفاعةً يـومَ لا ينفـعُ مـالٌ ولا بنـون.. هكـذا أنـا في أيـام المسْـغَبة. هكـذا كنـتُ أقحِـمُ شـقْوَتي في القـرآن وأرفـعُ صـوتي بالآيـةِ تِلـوَ الآيـة علّـه يَفيـق،

أو، أو ربما يهبط روح القُدُس عند المُنعَطف ويلامس أرض النّاس من أجلي. لكنّ هاتِفًا من أعماقِ كان يشدُّ من أزْرِي: «حَاصِرْ حِصارِكَ يَا وَلَد»، ففي شتاء البحر دفءٌ يكادُ يُخمِد أنفاس النّار.

أصدَرَ العجوز أوامره لي، بشحن الخبز المُعتّت في قيطونه، و «زُورْ نُورْ»[٦٩] لا بدَّ من إنجاز هذه المقطوعية واستِرباح بعض الدنانير، فقد يدفع إذا لم يسْتعصِم.

قلتُ بثقة المؤمِن الذي لا خيارَ له غير انتظار الثواب في الدّار الآخرة: بكم تستأجرني لِشحن هذا القيطون يا مَولاي؟

تضجّرَ لأني سألتُه!

- خيركْ يا سُوداني، آنِي مَا نِسَقِمْشْ.

- «نَان يا مقطوع الطّاري، أنا جِيت مُتخَمْخِم من أرض المليون ميل مربّع، عشان أسَقِّمْ ليك بالمجان؟».

كأنه لم يسمعني، بل في حُكم المؤكد أنّه لن يتصوّر أنَّ الخواجة فليمنج استخرجَ من عَفن الخُبز فتحًا للبشريةِ هو البنْسلين.

فتحَ العجوز باب القيطون فرأيتُ في سِمته ملمحًا لقائِدهم وهو يقول عند افتتاح النهر الصناعي العظيم: اكتبوا على مواسِير النّهر رسالةً للأجيال، بأن هذه هي آخر محاولة

٦٩ مهما كان.

لصُنـع الحيـاة في شـمال إفريقيـا.

قال عجوز الأطلس بلهجته الآمرة:

- هيّا هيّا، دِير هَاي الخُبز. ربُّكَ قال إنك سُودَاني مِليح.

- هل أنباكَ ربِّي أنني جئتكُم متطوعًا؟

كنـت أهـذِي. كنـتُ أرفـعُ خفيتًـا، فهـذا الأعـرابي مـا جـاء إلى الفُـرن إلا ليُسّـخِرني ويَسْـخَرَ مـني.

إن كان سوف يستأجرُني، فكم سيدفع؟

- يا حاج!

- إيه؟

- ربِّي يقـول اللـي عـاوِز يقولـه، لكـن هـاي العِبيـد «الـزَّ». يعـترف أمـامَ فخامَتِكـم، أن دولـة الكِـيزان دولـة باهيـة جـدًّا!

- شِينْ هَاي الدُّوَّة؟[٧٠]

- لا شيء، لا شيء.

- سَمَّعنِي ويشْ تِقول يا سُوداني؟

- مـا قُلـت حاجـة بـسْ دايـرك تعـرِف، إنـو الجماهيريـة دي أحسـن مـن دولـة الصّحابـة الـزُّرْق في الخرطـوم، لأن جماعـة

٧٠ ما هذه الضجّة؟

التمكـين هنـاك، مـا بْيَشـهِدُوكْ.[٧١]

- إيشْ جماعة التمكين هَاذَايَا؟

- نـاسْ التّمكـين ديـل مِـن أسَاسـو، لا يُعشِّـمون أمثـالي في حـق العمـل.

- حقّ العَمل؟

- أيـوه حـقّ العمـل، وفـق مـا هـو منصـوص عليـه في الشرائـع الدوليـة.

- شِينْ قُلت يا سُوداني؟

- يـا حـاج أنـا عـارِف إنـو الأجـر في الجماهيريـة «عـلَى الله»، لكـن برضـو أقـول كـتر خيركـم، لأنكـم أديتـوني فرصـة عمـل، عشـان مـا يجـي زول يقـول إني قاعـد عاطـل.

- والله صحيح إنْكُمْ سُوَّادين كسَالى.

- نحن كسالى، لكن يكفينا استيعابكم لنا في زُمرة الشُّرَكاء!

- إيش فيك يا سوداني إنت تِحْكي سِياسة؟

- سِياسة شُنو يا حاج؟ آني مَا نَسَقِموشْ في السِياسة بُكُلْ!

إيه، الخزرجيةُ امرأة من صندل.

---

٧١ لا يعطونك فرصة.

أهديها كلامًا عذوبًا فترميه وراء ظهرها.

كم مِن جريحٍ مرَّ تحت قوس النّصر وكم من قتيل؟

مَن لي بكذبةٍ ذات أثر باقٍ؟

كذبة لا تُغضِبُ الآلِهة ولا تُفقِدني السيطرة على زِمام الأمر.

قالَ عمّ عبدُه البوّاب إن النّوبيينَ بعد قيام «السّد العالي» أضربوا عن تلقيب أبنائهم بأي أسماء رئاسية. قلت له: يا زول، إنت رُحت بِلاد النوبة في زمان «العَاجَكو»![٧٢]

قال: وأروح ليه، إذا كان السّودان كلّه بيَجيني لَحَدّ عَنْدي؟

كنتُ إلى جواره أنتظرُ مجيئها:

- مَن تلك الكابوريا يا عمّ عبدُه؟

- يا ابنِي، خلّيكْ في حَالكْ أحسَنْ.

أشعلَ عمّ عبدُه حجرًا وغاصَ في الذِّكريات: «كُدودة هوُي واا كُدودة. حِليلك يا حَبيبة، حِليلِكْ يا نُوبة، يا أغلى من الدّهب. مُشتاق لرِيحة البلد. قلم الهرير أنْجِدَانا. لابسة الحرير اللّامِع. كُولونيا جُومِي أسِّكّا جِنّا. يا أحلى عُطور الدنيا».

٧٢ رقصة سودانية، ارتبطت بالصراع الأيدلوجي بين اليمين واليسار في الجامعة.

- تعـرف إيـه، تِمثـال «أُقْجَنْـدِي» الـلّي في المَحـسْ ده، أيّ واحدة تِيجِـي تِتْمسِّـكْ فيـه[٧٣] تِحْبـلْ عـلى طول.

- تعـرف إيـه، الرّاجـل لمّـا خلّـص قِرايـة في الأزهـر، طلـع ومعـاه جرثومـة إعجـاب بحسـن البنّـا بتـوع الإخـوان، ومـن شِـدّة إعجابـه بالبنّـا، راح إيـه، سـمّى ابنـه البِكْـر عـلى مـين؟ عـلى «سـيِّد قُطـب».

- سي السيِّد حِتّة واحدة؟

- شوف بقى حصل إيه.

- حصل إيه؟

طَـبَّ الزّعيـم في البلـد، ودَخـل في معرَكـة مـع الإخـوان. قـام الرّاجِـل عمـل إيـه؟

- إيه؟

- قال يِعمل موازنة، فسمّى العيِّل التّاني على الزّعيم.

- الزّعيم؟

- أيوه مافيش غيرو، عبدِ النّاصِر طبعًا.

- آه، وبعدين؟

٧٣ تتمسّح فيه تبرُّكًا وطلبًا للذريّة.

- لمّا رجع لوادي حلفا، وقع انقلاب إبراهيم عبّود في الخرطوم. الراجِل قام عمل إيه؟ سَمّى ابنه التالت، على سعادة الفريق.

- يعني محْسوبَك حازَ اسمين رئاسِيين، بالإضافة للاسم العلمي إيّاه؟

- بالظّبْط كِده. أصبح عِندو من الأبناء جَمَال وعبّود، ومعاهم مين؟ سي السيِّد...

هَتفنا في طفولتنا، للوحدة الثلاثية بين السودان ومِصر وليبيا: قذافي - نميري - ناصر، وكانَ لنا تحريف موضِعي لذاكَ الهُتاف!

في تلك الساعة كنتُ أكرف معه ذؤابة المرْج. كان يمُد لي مبْسمًا ينفُخ على جمره، وأنا أرقُب سلالِم العِمارة، بينما يعود هو إلى وَجعه الداخِلي على نخله الغريق بحلفا القديمة:

- قال إيه، اتّفقَ الزّعيمان على بِناء السدّ العالي.

- يعني إيه؟

- يعني راحت السِياسة في طريق، والأحلام في طريق.

- آه، وبعدين؟

- مافيش بعدين... النوبة مش مُمْكِن يِجاملوا.

- يعني طالبوه بتغيير أسمائه الرئاسية؟

- افهمني بقى، النّوبة ما يجاملوش في موضوع الأرض.

- ودا كلّو عشان غلطة هامِشيّة ارتكبها الراجِل المسكين؟

- هامِشيّة ازّاي، دا كان بيقول: أنا ما عِنْدِيش أولاد، أنا عَنْدِي «هوازيق»![٧٤]

رزْمُ خطواتها على السلالم لم يزل عالِقًا في ذهني. دبيبُ الحَجر يسْرِي في رأسي.

- مَن هذه الكابُوريا يا عمّ عبدُه؟

- ...!

انفجر المرّوكي مرعوبًا. كأنه رأى نهاية الدنيا عندما سمِعَني أتْلو اسم الذات الملكية مبرأ من ألفاظ التبجيل. دَفَرَ طواجِن الفُرن في وجهي فأعاد ذاكرتي إلى قماقِمها. أعادني إلى قارعة الهموم. أعادَني إلى حيثُ قذفت بِي تلكَ التي ظَعَنتْ ورَاء البِحار.. ما أقصى احتمال يمكن أن يفعله هذا المرّوكي أكثر من تفتُّق الجُرح؟

سيشكوني إلى رَبِي الذي يأتيني بخضراواته الفكريةِ، ويقول إننا شُركاء لا أجراء. بسيطة.. لقد جربتُ التفنيشَ في دولة الصّحابة الزُّرق، فكيف أرفضه وأنا تحت عُهدة أول

---

٧٥ خوازيق.

جماهيريــة في التاريــخ؟

قال لي المرّوكي برعبٍ حقيقي: إنْتَ تِحْكِي سِيّاسة يا سُوداني؟

كانَ لِسـاني طويـلًا، فهـو غريـبٌ مثـلي، والغربـاءُ يهيمـون في كُلِّ واد.. لِـذا قلـت لـه بتحـدٍّ: «يسكْسِـكْ دِ...»!

- إيه، إيه؟

- قُلت ليك: «يسكْسِكْ دِ...»، سمعت ولّا أقولا تاني؟

- إنت ما تِبْغي تِخْدِمْ، توَّا تِشوفْ.

- هووووي، أشوف شُنو؟

- الْحِينْ تَرَى.

- أنا الشُّفْتو كَتِيرْ.

- توّا تِشوفْ، سُوداني «الزَّ».

- ويعني إنت حتعمِلْ حاجة أكْترْ مِن عَمايِل الإخوان؟

- توّا تِشوفْ، توّا تِشوفْ.

- يا أخي امشي اشتَكيني لله ذاتو، الشَّغَلة دِي أنا ما بَسوِّيها.

أطلـقَ عِيـارات مـن شـتائم، فهمـتُ بعضهـا وغـابَ عـني أكثرهـا في رَغـو الـكَلام. سـمعته يقـول في عمقهـا «يـا عِبيـدْ».. يقولهـا لي

بفخرٍ، كأنه اكتشف حقل كرم في حيشان «كافوري»، أو كأنّه سيف الدّين قُطُز يومَ هزمَ التَّتار في عين جَالوت!

- إيه يا مروكي، ما أعذبها. إنها الإشارة الوحيدة الباقية لي من مَجاز الوطن.

- والله صحيح إنّك عِبيد.

- أدري أنِّي عِبيد، وأدْري أنّ هذه الكلمة هي غِذاء الغُربة اليومي في بلاد العرب، آه تاني داير تقول شُنو؟

لكن المرّوكي لم يكتفِ بها. كان يضيف إليها كلامًا خادشًا للحياء... إن كان صادقًا فيما يقول، فإنه يكون قد فَعَلَها بِي وبأهلي وبلدي حكومةً وشعبًا!

هنا عاجلته ببذاءةٍ أمعنتُ في تشكيل حروفها. قلت له وأنا أُدرك تمامًا فداحة الهروب مِن أرض الوطن:

- «كُ. أُمْ» الجامِعة العربية!

بمجرد أن سمِعها مني، فتح عينيه باتّساع تَماس الحرب في المنطقة. قال شيئًا -ربما بالفرنسية أو بالأمازيغية- لا أدري.. يقولونَ إن المرء يعود إلى لغته الأُم في لحظات الشِّدّة...

- اسمْع يا مرّوكِي.

- ما اسْمعْشْ.

- أنَا أرْفُضُ هَذِه الطَريقة في الشّتْم..

المرّوكي الذي كان يأمرني بتمسِيح الزيت على الخُبز، أخرجني من فوْرة غضبي حين سخر مني قائلًا: والله لَسُوداني «الزَّ»، إيشْ تِرفُض وإيشْ تِقبلْ، إنت تعتقد نفْسَك عُضْو في برلمانْ؟

وضَحِكْتُ!

ضَحِكْتُ كمَا لو أنني رأيتُ انبثاق الفجر من قلب السوق العربي.

ضَحِكْتُ كمَا لو أن البلاشفة وَاددوا المناشفة ورمموا معًا جِدارَ برْلِين. ضَحِكْتُ كمَا لو أن المُغني في ديار الشايقية «صَبَّرْ قِليبو، وعَملْ حِسَابو»![٧٥]

وأنا بين ضَحَكاتي ورَهَقي وعَطَشي، قفَزَ إلى ذِهني قريبي عِتْمَان..

إيه، هلْ جرّبتَ يا صديقي عطَشًا ذَاتَ شِتاء؟

في تلك اللّحظة تَمَارى لي عِتْمَان جلبابه السّكروتة وهو يزور الحِلّة قبيل نزوحي عنها. سَلَخَ لحبّوبة «هُولة»[٧٦] أوراقًا سَنينة مِن ربْطة بنكنوتٍ فضَّ ختمها فينا.. دُقْشَة من الورق

٧٥ مقطع أغنية شايقية تقول: (كيفِن أعمِل حِسابي، ما دَام عشمي في نَظرة والعِندو النّظرة مابي، كيفِنْ أصبِّر قِليبي)؟

٧٦ خوْلَة، لِسان العُجمة قلب الهاء خاءً.

الثمـين مِـن المَطبعـة إلى يديـه.

ثمّ إنّ عِتْمَان قرّرَ أن يزور المدرسة.

تلك الحِيطان كانت مرتع صِبانا.

تلك الحِيطان هي شاهِدي الحي على أنه كان دِلاهة الفصل.

أذكـره بِـ«رِيَالَاتـو وخُرتَايتـو»، لكنـه الآنَ «النّابغـة الذُّبْيَـاني»، في الحـزب الحاكِـم!

سـيزور المدرسـة ولا بُـدَّ أن أزورهـا معـه. لا بُـدَّ أن أكـونَ حـاضِرًا ومُرتكِـزًا في زاويـةٍ تسـمح لي برصـد النسـائم وهـي تهفهـف شـالَه ثُـلاثي الأبعـاد لِتَعـدو نحـوِي بعطـرٍ كانَ موضـةً لأعيـان الزمـان.

تـبرّع عِتْمَـان أمـام الطّابـور ببنـاء مسـجد داخِـل المدرسـة. قلـت لـه مـن فـوق كُسّـار الطـوب الـذي كُنـتُ أرتكـزُ عليـه:

- لكن هذه المدرسة «وانْج».[٧٧]

رمقـني بنظـرة خاطفـة. خِلـتُ نفـسي في تلـك اللّحظـة قـد «عَفصْـت» عـلى أزرار عمليـة التغيـير. يبـدو أنـه قـد تعلّـم الكثـير. يبـدو أنّـه انـدرجَ هُنـاكَ في دورات متقدمـة.

لم يَرُد عليَّ بل زَجَرَني صمتًا وواصلَ «دَرارِيبه»:

- نحـن دايريـن النُـشء -قالهـا بضـم النُّـون- دايريـن النُـشء

٧٧ ذاتَ سقفٍ مكشوف.

يتعلّـم أمـور الدِّيـن.

وأكمل بقية الرِّوَايَة..

وأنـا مِـن فـوق كُسّـار الطُّـوب كنـتُ أقـول: المدرسـة دايـرة طبَاشـير ومُعلِّمـين وينقُصهـا الكتـاب، ولـو نِحـنَ وفّرْنَـا كتـاب لـكل تلاتـة تلاميـذ، يَكـون كُويِّـس جِـدًّا جِـدًّا..

ليتـني لـم أقـل ذلـك، فقـد صفعَـنِي بسـؤالٍ جَلَـبَ عـليَّ الكثـير مـن الحوقـلات.. قـال موجِّهًـا حديثـه لي:

- إنْتُو مُنو؟

ثـم أكمـل بقيـة الرِّوَايَة...بسـؤاله هـذا، كانَ قـد اسـتبقَ مُفجِّـر الغضـب الثـوري، لـولا أنّ التاريـخَ أيضًـا «نـكّارَ جَمِيـل»!

عندمـا جاءهـم أبـو مِنيـار زائِـرًا أعـدّوا لـه مـا اسـتطاعوا مـن زينـة واسـتقبالات. أقامـوا احتفـالًا ضخمًـا. ركِـب القائِـد عـلى البَلـدوزر، وهَـدَّ جِـدار سِجن كوبـر، وأنصتـوا لـه خاشـعينَ وهـو يسـتلِذُّ بـ«أصبـحَ الصبـحُ».[٧٨]

لكنّـه لـم يَعفِـر، ولـمْ يحتَسِـبْ. لـم ينْـسَ أنّهـم «جَغْمُـوا»[٧٩] الاتّجـاه المُعاكِـس مـن طريقـه في بادِيـة شرق النيـل.

خاشَنَهُم من فوق عربته المكشوفة وعادَ إلى خيمته..

---

٧٨ نشيد وطني للفنان محمد وردي.

٧٩ سرقوا.

بعـد سـنوات مـن تلـك الواقِعـة دَكَّ النّاتـو حصـون طرابُلـس، فأفـرجَ هـوَ عـن استفسـاره الأخـير:

- «مَنْ أنتُم؟».

٧

في هـذا المـكان مـن بـلاد السـودان يمكنـك أن تعيـش دون أن تُدخِـل يَـدَكَ إلى جيبِـكَ. هنـا قـد لا تحتـاج إلى البنكنـوت إلا لِـشراء السّـعوط والسُـكَّر والشّـاي ولحمـة الجِـزارة. حـتى هـذه، يمكـن أن تمـزِّق فاتورتهـا باصطيـاد السَّـمك والقَمـاري.

هبّـاب النسـيم في عـلالي جبـل «سِـتِّي عَاشـة» يعيـد إليـك كهـارِب الصِّبـا. يقولـون إن السـيدة عائشـة أم المؤمنـين وفِـدت مـع العـرب الفاتحـين، لكـنّ كلبًـا أعـورَ لأحـد «الحمّـوراب» نَبَـحَ فيهـا فعـادت أدراجهـا إلى جزيـرة العـرب!

في المكان عبقٌ يجعلك تهرف مثل أمير عبّاسي.

الحيـاة هُنـاك قابلـة للتطريـب. أسراب طيـورٍ تفـر أجنحتهـا في الـبَرَوِّد، والحِكَايَـة طويلـة ولا تنتهـي، بـينَ «أُم قـيرَدون والبُغُج»[٨٠] منـذ الطفولـة وهمـا يطـاردان بعضهمـا فـوق التّبـس والجريـد وشـبابيك البرنـدات، والنـاسُ في بلـدي لا يكفـونَ عـن اتّهـام

٨٠ أسماء طيور بلغة النوبة.

البُغْـج بأنّـه «زُنَّـانْ».[٨١]

بُيـوت الطـين دافئـة في الشـتاء، بـاردة في الصيـف. الله مُقسّـم الأرزاق جعـلَ أرزاقهـم في التِحتَانِيّـة. هـؤلاء لـن يجوعـوا مـا دام أن هـذا النيـل يجـري مـن الـشرق إلى الغـرب ثـم ينجـرف نحـو مِـصرَ مُسـلّمًا أمـره لله.

أهـلي يزرعـون كل شيء تقريبًـا، من الحِنطـة إلى اللوبيا إلى الويكة إلى الجِرجـير والشـمّام والطّماطِـم والشـمار.. أخـيرًا أدخلـوا في الحقـول زراعـة البطاطـس. في الليـل يعشـقون الطنابـير و الكَشَـاتين و، و... كنـتُ أحتـاج إلى ثلاثـة أيـام للوصـول إلى هنـاك. الآن يحمِلـني البـاص السريـع -جَنَـا اليابـان- إلى جزيـرة «تنْقَـسِي» في خمـس سـاعات.

حـقّ الله بـقّ الله. سـلام سـلام، وعَـصرًا بـدري أكـون معهـم فـوق قـوز الحِلّـة ويبـدأ القرْقـرابْ.

«قاسِـم الحويـج»[٨٢] الـذي لـم يقـم حـتى اللحظـة علاقـة مـع العالـم الرّقمـي سـألني:

- آآ زول جِيت مِنين؟

قبـل أن أجيـب عليـه قـال: أصلـو يَاهـو حَالـك، نسـمع بيـك

---

٨١ زانٍ.

٨٢ تصغـير حـاج. سُـمِيَّ هكـذا لكونـه حُظـي بزيـارة البيـت الحـرام ضمـن تفويـج النظـام الحاكـم لبعـض منسـوبيه.

جِيتْ وباكِر نسمع بيك «دقّيتْ خلْفِي»[٨٣] زي التّقول جَاي تَشُوط ليك ضربات جزاء.

ثمّ عاد يسألني عن أخبار حكومة الخرطوم؟

قررت أن أتَداغلَ عليه.. قلت له: تسألني عن الحكومة، إنتَ قَالوا ليك أنا «حَامِد مُمتاز باشا»؟

كانَ ممتاز هذا، أحد الوجوه الشّبابية الجديدة التي تؤكد لك أن سُودان الإخوان لم يُبارِح كثيرًا عهدَ «التركية السابقة» بعسفِها وبضرائِبها الباهظة.

قال الحِويج ما يدُل على أنه يتابع باهتمام أخبار الحِزب الحاكِم:

- واللهِ إن جِيت للجّدْ الشِّويفع دا -يقصد ممتاز- مُو هَيِّنْ!

ثم استدركَ:

- لكن كلّهم زي بعض. الكيزان ديل كلّهم يشبهوا بعض. عليك أمان الله، «التّقول قطِعْ فضُلْ».[٨٤]

كان فضُل هذا إسكافيًّا ماهِرًا اشتهرَ في سوق «تنْقَسِي» بصناعة المراكيب من جلود الشياه.

وانطلق الحِويج في الحكاوِي:

٨٣ رجَعَتْ، أو عُدت أدراجك.

٨٤ لا فرق بينَ أحدهم والآخر..

- تعـرف يـا أخينـا، الزمـن داك إنـت كنـتَ في ليبيـا. السّـنة دِيـك البحـر غلّـقْ[٨٥] وزنَـقْ الجزيـرة زنْقَـة عَـدوك. نزلنـا التِحتانيـة أنـا ومَعـاي الأنصـاري صدّيـق المـرضي، قلنـا نقيـف مـع الجماعـة نـترُس البحـر. يـا زول دَاك مـا كان بحـر نَصَاحْ.. الضّحويّـة كلهـا ونحـن مُتكربـين فـوق الجُـسُر -فَطُـور مَـا فطرْنَـا- آه، شـويتين أشـوف ليـك بُطـان الحِلّـة قدّادِيـن العـرِضْ، بِقـوا «بِتْسِرْتـوا»[٨٦] بي واحـد واحِـد مِـن فـوق الجُـسُر. عاينـت يمـين شـمال لقيـت صاحـبي الأنصـاري ماسِـك الكُوريـك يمـلأ في شـوالات الخيـش. برَّاحـة مشـيت جمبـو وقلـت ليهـو: يـا زول إنـت مـاك نَصيـح؟ إتْ فَيـك راسْ؟ الجزيـرة دِي أكان كلّهـا «حِتْلـتْ»[٨٧] نِحـن خسْرانِـني شـنو؟

قلـت ليهـو: الجزيـري دي، عِندنـا فيهـا شـنو؟ مُـو يَاهـا قبضـة القـشْ للبهايِـم؟ مُـو يَاهـا جِغيمـة اللّـبن دي؟ حـرّمْ أنـا مِـن دزْبي دَه أغـشى دُكان الحِليـبي وأشـترِي لغنمايـتي تلاتـه أربعـة صناديـق بسـكويت، وخـلاص!

امـرُق يـا زول مـن الطّـين والـتُّراب دَا. دَا مـا بَحَـرا بِتْقَـرِعْ. امـرُق يـا زول نِحـن مرْيوقـين. آه قُلنـا كـدي اتْنفّضنـا مـن طـين الجسـر ومرقنـا.. بعـد شـويتين وأول مـا طلَعنـا جَبـل سِـتّي عَاشـة، سِـمعنا الكواريـك: عـووك عـرروك...

---

٨٥ فَاضَ.

٨٦ يهربوا.

٨٧ غرِقت في جوف النيل.

الحصـل شـنو يـا نـاس؟ قالـوا البلـد غِرقَـتْ.. قلـت ليهُـم خلّوهـا تغـرَقْ، أصلهـا بلدنـا دي، فيهـا قبّـة سـيدي الحَسـنْ؟

وضحِكنـا، بينمـا كانـت تعابـير وجهـه المحايـدة ترمـي الكوبليـه الأخـير مـن الحِكَايَـة:

- بلدنـا كانـت «مِملِّحـي قدَحـا»[٨٨] قُبّـال مـا يدخلوهـا الدّبابِـب دَيـلْ..

كانَ الحويـج يعـني بالدّبابـب شـيئًا آخـر، غـيرَ تلـك الزّواحـف الـتي تكاثـرت مـع دخـول الاسـتثمارات الصينيـة والخليجيـة إلى بـلاد السـودان.

قلـت لـه: أدّيـني رقـم الموبايـل بتاعـك عشـان أتّصـل بيـك مـن الخرطـوم العاجبـاكْ دِي.

- القال مِنو عاجْبَاني؟

- تلفونك كم؟

- ما بدور كَشَرو.[٨٩]

- ليه؟

- أنا الدّايرِني يَجيني، والدّايرو بَمْشِيلو..

---

٨٨ جميلة جدًّا.

٨٩ لا أرغب في اقتنائه، ولا أطيق التعامل به.

- أتاريك زول «كُدّة»[٩٠] تخاف من شحْن الرّصيد؟

- الرّصيد ما هِميّة، لكن الدّاهي دا يعلِّم الزّول الكِضِبْ.

- ويعني الكضِب دَه «شيتًا»[٩١] داير تتعلّمو من أول جديد؟

- يا زول قول بِاسمِ اللهِ، ما بكضِّب كيفِنْ، أكان ما كضّبتَ بتقدر تعيش مع الكيزان ديل؟

في تلك السنة أخرجت الأرض أثقالها، فنزع الأهالي مِن الجزائر وسكنوا أطراف الصحراء.

في حمرة الشيخ حيث الرواكيب التي تؤوي القادمين من الصحراء الكبرى، رآني مُساعِد لوري الحِلّة. أخذني بالأحضان وقال:

- إنت كِدا يا فرْدَة.

- الخبر شنو؟

- بعد ما عملتَ شَتَاتْ من الحِلّة جاء كومر الحكومة «يكشِّفْ ليكْ».[٩٢]

- دِي حرَكات المُجاهِد عِثْمان.

---

٩٠ شَحيح.

٩١ شيئاً.

٩٢ يبحث عنك.

إنتو كِدَا يااخ، أنا عارفكم ما بْتِنْقَبْضوا بالسّاهِل.

- نِحْنَ مُنو؟

سـألته عـلى مضـض، فـكان لضحكتـه معـانٍ لا تحتـاج إلى تمحيـص.

إيه، ما أقسى عطش الشتاء.

وأنـا في تلـك الحـال توافـد بعـض المُخضوضِريـن إلى الفُـرن. الثـورة خطيئـةُ الحَمْقـى، وهـؤلاء هُـم رصيـد المسـتقبل.. هـؤلاء الذيـن لا يـشرون الخـبزَ إلا بعـد استفسـارهم عـن طلـبٍ حـاضرٍ أمامهـم كالتِـلال.

وأنـا في تلـك الحـال رأيـتُ رَبِّي، دافِـرًا صـدره نحـوي: شِـينْ هَـايْ الدُوَّة؟

قلـت لـه: شـوف يا شـيخ العـرب. التِمِسِّـحْ بالزيـت دي، شَـغَلانةْ حَرِيم.

لكن رَبِّي أعادَ السؤال، ما يعني أنه أحالني للتحقيق:

- إيشْ قُلت غَيرْ، إيشْ قُلْت غَيرْ؟

- أقول شنو، وأنا في جِنس الحالة دي؟

- إنت تِشْتُمْ القائِد يا سُودَاني؟

أووه، أمانة ما وقع راجل..

إنها الحربُ ولكن، مِن نِعم الله على عباده أنّ الحرب كرٌّ وفرٌّ.

في هذا المُنعطف يتوجّب عليَّ أن «أجُرْ واطِي».[٩٣]

لا بد من انحناءة لأجلِ الثورة وقائِدها وجماهيرها.. لاطفتُه بحكمةٍ يبدو أنها أهلتني للعودة مرة أُخرى إلى دولة الصّحابة الزُّرق في الخرطوم.. قلت له:

- يا شيخ العرب لا تُصدِّق هذا المرّوكي، آني ما نِشْتِمو القائد ومَا نِفْهَمو السِّياسَة بُكُّلْ بُكُّلْ.. الله يِرْحمْ وَالِديكْ.

- لا لا، إيشْ قُلت قَبْلْ؟

- وراس القائِد ما قلْت شيء.. هَاي المرّوكي ما يِفْهمني، أنا أقسمت له برأس القائِد، لكن هدا ما يِفهمني.

- بَسْ؟

- ورأسْ القائِد، ورأسْ القائِد.

كرّرتها مرتين.. ما حدث بعد ذلكَ أننا انتهينا -أنا والمرّوكي- إلى ما تسميه أدبيات الجامِعة العربية بـ«مصيرنا المُشترك»!

كان عمّر عبدُه يؤانِسني في ليل المنْيل بعشقه لعبد الناصِر،

---

٩٣ أتراجَع.

وكنتُ أنا أرقُب السلالِم في انتظارها.

- تعرف إيه، عبّود وعبد النّاصِر كانوا سمْن على عَسل.

- طبعًا لازِم يكونوا كِدا، مُش همَّ عساكِر برضو؟

- بسِ دُولْ كانوا مُختلفين شوية.

- دول مين؟

- عبّود وعبد النّاصِر.

- يا عمّ عبْده!

- طبْ بَلاش، طَبْ بلاش... تعرف إيه، الراجِل رَاح لمُحامي عشان يساعده.. المُحامي قال له: الله يِخرِبْ بيتكْ، إنت عاوِز تخرِب بيتي؟

- وبعدين؟

- الرّاجِل يعمِل إيه، ما يِقْدرشْ يعمِل حاجة.. طبّ سَاكِتْ وراحْ واخِد الأولاد وسافر حلفا الجديدة.. لمّا الواد سيِّد دخل الجامعة -على طول- جنّدوه في التنظيم.

- في الدفاع الشعبي؟

- أيوه، جنّدوه في الإخوان.

- اوعى تقول ليَّ إنو مشَى الجِهاد، ومات في حرب الجنوب!

- يا ريت.

- مش هم بيقولوا: جِهادْ نصْر شهادَة؟

- دَه الوادْ سيِّد بِقى يعمِل حركات.

- حركات زيّ إيه؟

- ما يعرفش يقول حاجة، غير شِعارات مِن بتوع الإخوان.

- هل قالَ إنّ الإسلام هو الحل؟

- كلِّموه، ومَا سَمِعْشِّ كَلامْ.

- هل قالَ إن قبلَ القُوتْ؟

- كانَ يحدّثهم عن المَحَجة البيضاء، التي لا يزيغُ عنها إلّا هالِك، وحاجة زي كِده.. بعد شوية اتجوّز واحدة مُتحجِّبة، وخلِّف بِنت سَمّاها «تأصيل».

- تأصيل؟

تأصِيل، نَمارِق، تَقوى، تسَابِيح، تراتِيل. أسماء مؤدلَجة يتم تداولها كثيرًا في أوانات «التّغنيش».[٩٤]

بنات الكمْبو مليحات لولا كريمات تفسيخ الجِلد. رصدتُ بعضهُنّ يختفي فجأة مِن مقاعِد الدِّراسة، إذ

---

٩٤ نسبة إلى (راشد الغنوشي) زعيم حركة النهضة في تونس.

كان عمّك جِبريل -جِبْرِينْ- كما يناديه أهل الكمْبو، يقتَنِص السَّوانِح لتأكيد دعمه لثورة الإنقاذ الوطني، قائلًا إنها «رخَّسَت الحريم».

كانَ يحلو له أن يكونَ حمامة مسجد، لكنه كلما وقَف مُعقِّبًا على خطبة الإمام أيقنَ المصلّونَ أن تعقيبه ما هو إلا نذارة بأن عمّكْ جِبْرِينْ، وقعت عينه على فتاة، وأنه -عمّا قريب- سيستبدِل بإحدى نسائه الأربع عروسًا جديدة.. بذلكَ يقع عُمّال المحالِج في فِخاخ التَكَهُنات: يا ربي عمّكْ جِبْرِينْ نَاوِي «يَرْخِي يَاتا»[٩٥] من حَريمو؟

على هذا النحوِ عاشَ جِبْرِينْ متفاعلًا مع ثوابت الإنقاذ، حتى ظهرت بيارق انتخاباتها المعروفة..

كل تلك السنين والرّجُل يبذُل جهدًا خُرافيًّا في حفظ الآيات والأحاديث التي تُعَضِّد موقفه «الدِّيني» من الحَرِيم.. و، عمّك جِبرين يتمسّك بأداء الأذان كاشفًا عن قناعاتٍ فراهيدية يُدلي بها كلّما قرّرَ العروج نحو تلك الجبال، فقد كان يُرَدِّد بصيغة الجمع قولهم المأثور: «نُحن باقونَ على تأييدِنا للثورة ما بقيتْ فينا ثوابت الثورة».

والثوابت برأيه واضِحة ولا تحتاج إلى تفصيل..

ولما كان مشروع عَمّكْ جِبْرِينْ في الحياةِ هو المُجاهدة داخل حظيرة النساء، فقد كان منطقيًّا أن يكون طموحه السياسي

٩٥ يتخلى.

مسـقوفًا عنـد حـد التطلـع إلى وظيفـةٍ يتحـدد وصفُهـا بـالإشراف عـلى مؤتمـرات الحكومـة المُخصصـة للتناكُـح الجماعـي.. كان مؤهـلًا لذلـك ولـه في ذاك الشـأن «حَنـكْ سَـنين»[٩٦] وفَلَجـة ودقـن دائريـة غليظـة يتخلّلُهـا رَذاذ مَشِـيب.. كان مـن اليسـير عليـه أن يسـتغل صلاحيـات تلـك الوظيفـة ليسـجِّل اسـمه عـلى رأس كل كوتـةٍ مـن كوتـات الـزواج الجماعـي متعلـلًا بـأن «صِبيـان الزّمَـنْ ده مـا دايريـن سُـتْرَةْ الحَـالْ»!

ومـع تعليلاتـه تلـك، كان لـه بـوحٌ مـع أصفيائـه الذيـن يجالسـهم في الغالـب في الجامِـع بـين المغـرب وأذان العِشـاء.. لـو اسـتبقيت روحـك قليـلًا في بـرْش الصـلاة أو أرخيـتَ السـمع لِصخبـه في البرنـدة، فستسـمعه يُفـرِغُ مـا في جوفـه ويعـترف بِـبرودٍ لا عطـفَ فيـه، أنَّ «الثـورة مَـا قـصَّرتْ مَعانـا»!

مـع رفـاق دربـه يكـون شـفيفًا في التعليـق عـلى الثوابِـت كمـا يفهمهـا.. يقـول لهـم إنـه عـازِم عـلى الانضمـام للكوتـة الجديـدة مسـتندًا إلى حديـثٍ يدعـو إلى تكثـير النّسْـل، بينمـا يُـسِّر للمُقرّبـين بـأن «الشُّـغُل دا ممكـن الواحِـد يطلـع مِنّـو بأنبوبـة بوتوجـاز، وإذا لقينـا معاهـو مَـرَة صَغيرونـة، دا يكـون عِـزّ الطّلَـبْ».

كانـت لـه قـدرة عـلى تحفـيز مُجايِليـه عـلى التدبيـل والتثليـث والتربيـع مُبديًـا إعجابـه -كمـا يقـول- بالرجـال الذيـن سَـاروا عـلى النّهـج. بعـد الغـروب يسـتبقي جِبْريـنْ أصفيـاءه في حـوش

٩٦ منطِق قوي.

الجامـع ويتفـرّغ لخدمـة مشروعـه. كان صوتـه يعلـو عـلى المصابيـح وهـو يقـول: الدنيـا دي مـا مضمونـة ولازم الواحِـد ياخُـدْ نَصِيبـو مـن البنـات الصغيرونـات.

كان يقلـب الصّـاد سـينًا، ويُفـتي أنّ القـرآن يقـول: (لا تنْـسَ نَسِـيبكَ[٩٧] مِـن الدُّنيـا).

ثم يضيف بِثقة: ما تنسى نَسِيبكَ، لكن خلي بدِيلَكْ جَاهِز.

- دا كلام شنو يا جِبْرِينْ؟

- لا تنْسَ نَسِيبكَ من الدُّنيا.

- الكلام دا لقيتو وين؟

- الكلَام دَا مكْتوب في الكِتاب.

- يَاتُو كِتاب؟

- كِتاب الدِّين.

يَاتُو دِين؟

إيـه، أقسـمت بـرأس القائـد مرّتـين. أدليـتُ بقسـمي مشـفوعًا بحـروفٍ مائعـة: يـا شـيخ العـرب، يـا شـيخ العـرب. ناشـدته بـكلامٍ معسـول وأنـا عليـمٌ بأنـه لا يعـرِف «طُـزْ مِـن سُـبحان الله».

---

٩٧ نصيبك.

مسكين هذا المرّوكي.. لن يُحاجني ولن يتماحك معي، فهو غريب مثلي في دولةٍ يتساوى فيها الجميع إذا وقفوا أمام النظام العام.

في هذه الجهة من العالم يتحقق نوع من المساواة بين القاتل والقتيل.

هُنا الشَّاكِي والمشْكو سيَّان.. الشِّيعي والشيُوعي سواءٌ أمام اللِّجان الثورية التي أرادَها القائِد أن تكونَ كما الله، في كل مكان.

شاركَ جِبْرِينْ في مشاريع التناكح الجماعي التي تشرف عليها الثورة.. استشرت أنباء زيجاته وطلاقاته داخل الحِزب الحاكِم حتى توجّست المؤمِنات على مواقِعِهنّ في قلوب المؤمنين.

وكما انشغل العوام بثوابته، كانَ عمّكْ جِبْرِينْ هو الشغل الشاغِل لرئيس اللجنة الشعبية الذي كان يُدبِّج المذكرة تلو المذكرة إلى مركزية التنظيم ناقلًا لهم ما يسميه بـ«رغبة وطنية صادقة في إحالة عَمّكْ جِبْرِينْ إلى التَقاعُد».

استجابَ المركز لتلك المذكرات ودفعَ بأحد كُبراء التنظيم في زيارة تفقدية لكمبو المحالِج.. وجاء الكبير بأُوتومبيلاته متسائِلًا:

- وينْ يا جَماعة، شيخنا جِبْرِينْ؟

وتقدم جِبْرِينْ رزينًا كأنه لم يركبْ جوادًا بلذةٍ ولم يتبطّن كاعِبًا قط..

وقف إلى جانب مندوب المركز يستمع إلى إشادة رسمية بجهوده في «رتق النّسيج الاجتماعي» حتى إذا ما وصلَ إلى فقرة الختام، قالَ مندوب المركز موجهًا حديثه لعمّكْ جِبْرِينْ: «ونحنُ إذ نقدرُ جهودك المثمرة في تجسيد شعارات الثورة على أرض الواقِع، فها هي الثورة تتجدِّد دِماءها، بتقديم الشباب للمشاركة في العمل الدّعَوي. ومِن هذا المُنطلق فإن الأُخوة في الخرطوم، يطلبون مِن أخينا في الله جِبْرِينْ، أن يُعطي فرصة أكبر للأجيال القادِمة، فلا يلتحِق بكوتة الزواج الجماعي ما أمكن، إلا بعد كل سنتين أو ثلاث».

في تلك اللحظة، دار بخلد عَمّكْ جِبْرِينْ -كما اعترف بعد ذلك- أن يتمفْصلَ عنهم، لكنه آثرَ التريُّث وقال بصوت مُتَحشرِج ردًّا على الزائر المركزي: «والله يا مولانا، عَصرْتو علينا شديد»!

لم أعُد أسأل عن غياب الغريرات من المدرسة إذ كان لعمّك جِبْرِينْ حظوظه الدِّينية أن يتدعشنَ بهنَّ.

دعني وشأني مع «الأمن الشعبي» وعضويته الرّاصِدة، فالقادة يَصدِقون أحيانًا والجماهير يُمكن أن ترتكب جُرمًا لا يُغتفر.

ابتسمَ ربِّي عندما دغدغه ندائي: يا شيخ العرب، يا شيخ

العـرب. ابتسـمَ، وليتـه لـم يفعـل. لقـد كانـت أسـْنانه في صفَـار البيْـضِ وسَـوَاده:

- إنت سُوداني ربع دماغ.

- واللهِ بيني بينك، الرُّبع دَا ذاته كتيرْ عَليَّ.

- آني نِبُّوك تِكون مُرتاح وتِخْدِمْ داخل الكُوشَة.

- صحي والله، الكُوشة يَاهَا شَبَهِي.

- غيرْ تَعالَ، هيَّا تَعالَ.

- دايِر تَودّيني وينْ يَا زول؟

- هَيَّا عَدِّي، هَيَّا «الزَّ».

وعدّيـت خلفـه فـإذا بـه يحمـل خُطـاي إلى مخـزن الدقيـق. وقفـتُ قزمًـا بـين صفـوف الجـوالات المسـتوردة مـن بَـراري أُسـتراليا وسُـهوب كنـدا وحقـول سـيبيريا.. صنْقعـت ودنْقـرْت وأنـا أقـرأ دِيباجـات الصلاحيـة للفينـو المُسـتورد، كأنـني عالـم كيميـاء يحفـظ الجـدول الـدّوري لعنـاصر الطبيعـة!

بعـض الجـوالات مبعـوجٌ بأسـنّة الـتّرام في المـواني، وبعضهـا مغـزولٌ بخيـوط القطـن، وبعضُهـا مصنـوع مـن بلاسـتيكٍ عليـه رسـوم سـنابلَ مِـن كلِّ لـون.

مرت عليّ سحائب المساء وأنَا في مخزن الدقيق.

ولقـد عَـصَرني ربِّي.. عـصَرَني «لحَـدِّي مَـا جِبْـتَ الزّيـت»[٩٨]
وبعبارةٍ أدق عصَرَني «لحدِّي مَا قُلتَ الرُّوبْ»!

كنـتُ أروح وأجـيء أمامـه حَاملًا أخيـاشي كأنهـا بَاقَـات تَهَـانٍ أُلقِـي بِهـا في وجـه أحِبَّـتي المفقوديـن.

أهـلي في جزيـرة «تنْقَـسِي» تحُفّهـم الهاشِـمية في كل شيء. كل مُناسبة عندهـم تبـدأ مراسيمها في الجامع، بعـد ذلـكَ يلْتَقـون في أي ديـوان مـن دواويـن الحِلّـة. إن لـم أذهـب إلى كرامـة عِتْمَان العائِـد مِـن الخرطـوم فسـيقولون إنـني هربـت مـن مواجهتـه.

في خَشْم الباب، ومن بين فرجات الحجّازين قلت له:

- عاوِز تبْنِي جَامِع في المدرسة؟

- ...؟

- مُـش كان أحسـن تبنيهـو في قلـب الحِلّـة عشـان نصـلّي فِيهـو كُلنـا؟

- إنتو قَاعدين تَصلُّوا؟

- ولّا تكـون عَـاوز تعمـلْ الجامِـع هِنـاك عشـان تجنِّـد شُـفَّع المدرسـة في «الأمـن الشَّـعبي»؟

- ...!

---

٩٨ بلغ بي التّعبُ مبلغه.

- طيِّب، مُش أحسن تقْلِب المدرسة خَلْوة وتريِّحنا؟

- إنتو منو؟

وهكـذا زَادت الحوقـلات عـليَّ، حـتى أنّ خـالي حـدّاد قـالَ لي: «إنـتَ جِيـتْ يـا المنْعُـولْ؟».

حبوبـة «هُولـة» الـتي انتزعـت جندرتهـا دونَ عـونٍ مـن بيوتـات التمويـل الأجنَـبي، جلَسـتْ في الديـوان تُناقـش مسـتقبلي الاجتماعـي والسـياسي مـع الرجـال.. قالـت وهـي تعـصِر عـلى البنكنـوت الـذي دسّـته في محْفَظتِهـا: أكان دَايِـرْ يسَـافِرْ، أنَـا بقْطَـعْ ليهـو التّذكـرة!

خـالي حـدّاد قـال: الـرّول دَا مـا بيقـدر يمـرُق مـن «الكوتّـق»[٩٩] دَه، والخرطـوم فيهـا الكشّـة، دَحـين الجنـا دَا خلُّوهـو قاعِـد في الحِلّـة المقيطيعـة دي.. خلُّوهـو قاعِـد يـضرّي معانـا في الهمْبَريـب دَه.

شـكرتُه فيمـا بعـد لأن إشـفاقه عـليَّ تغلّـبَ عـلى «مكَنَتَـه الخفيفة»[١٠٠] الـتي اسـتجابت لدراريـب عِتْمَـان في الطّابـور.

أحدهـم -ولا داعـي لذكـر الاسـم- اقـترح عـلى عِتْمَـان أن أركـب معـه الفارهـة: يـا ولـدي الـرّول دا شِـيلو معـاك في العربيّـة دِي، وشـوُف ليهـو أي شـغَلَانة في الخرطـوم.

٩٩ الدَّمر الذي لايطاله ماء النيل.

١٠٠ انفعاله السريع.

كان عِثْمَـان يتصـدر المجلِـس وفي وضعيـة التفـافٍ لا تُجـدي معهـا أن «أجُـرْ فيهـو النـور الطويـل» بعـدَ أن تمكّـنَ مـن اسـتمالة القـوم إلا قليـلًا.

قـال في ثنايـا المفاوضـات بشـأني إنّـه عـلى اسـتعداد لأن يُسـاعدني.

وبمـا أنّي أعـرف نـوع مسـاعداته الـتي يمكـن أن يقدمهـا، فقـد عجِلـتُ إلى السـوق بعـد دقائـق مـن تفحيطـه.

بِعْت الدّحَشة بِما يفتح الله، وغادرت الحِلّة: المرْقة ألْيّاها.

ربي يشويني بأحاديثه عن تبطُّل السودانيين.

يقـول إنّهـم أكسـل شـعوب الأرض، لِـذا يُطـاردني بعينيـه بـين أصنـاف دقيـقٍ لـم يزرعـه ولـم يطحنـه!

ربِّي يُمطـرني بشـعارات اشـتراكية الحَصَـا: هيّـا يـا سُـوداني، فِيسـا فِيسا.[١٠١]

أينَ منِّي مجلسٌ أنت به؟

أينَ منِّي وأنا بين الشّواويل ونيران الكُوشَة؟

قلـت لـربّي كلامًـا مـن بيـت الـكلاوي، وشَـددتُ أمامَـه عـلى كُفـري التّـامِ بفِقـهِ الطّبَقـة. قبـل تلـك «العَـصْرَة» في مخـزن الدّقيـق كنـتُ شـاعريًّا ينتمـي لحِـزب الجمـال. كنـتُ مفتُونًـا

١٠١ اشتغِل بِسرعة.

بلغـة الأردَاف، لـولا أنّـه غَسَـلَنِي في صَقِيعـة المُنتِجـين.

وأسـلمتُ رُوحـي لرغـو الدّفيـس. قادَتـنِي خُطـاي إلى الرّابِـش[١٠٢] الـذي دفـعَ بـه مُوسـوليني إلى تلـك الضِّفـة مـن اليَّـم.

وقفـتُ في طـرف العَمـار أتأمـلُ مقْـبرة السـيّارات وأكـرُف روائـح الدِّيـزل والفحْـم، وأتسـمَّعُ فحيـح أحْنَـاشٍ اعشوشـبت ظهورهـا في طبلونـات الـدُواس.

دعني، فهذا أفضل من الكشّة التي في شوارع الخرطوم.

دعني هنا، فلا شيء يغسل الحزن مثل هذا المَدى الجديب.

الأمـواجُ تتكـسّرُ عنـد صُخـيراتٍ في العُمـق. قبـلَ سـنينٍ ودِنـين، اجتـازَ بحّـارةُ مَالطـا هـذا المِلـح بأشرعـةٍ مـن هـواء. البحـرُ لـم يـزل مقـبرةً للنازحـين، والثـورة كعهدِهـا تـأكلُ بنيهـا، وأحـزَانِي بينَ مـدٍّ وجـزرٍ، وحُظوظِي مثـل كدَمَـات الطغـاة في وجـه التاريـخ.

قـال لي سـودانيونَ في مقهـى السّـاعة بمصراتـة: «في البلـد دي، أوعـكْ تعمـل فيهـا بِتـاع دِيـنْ ونوافِـل».

في بيتنـا العـربي -بيـت العزّابـة- قـال أحدهـم إنـه دخـل مسـجدًا جميـلًا، حيـثُ كانَ هـواءُ البحـر يُغـرِي بالتّنـاسِي.. التـأم جمـعُ العُبَّـادِ ولـم يظهـر فيهـم إمـام يتقدّمُهـم للصـلاة. أحـد السـودانيين كانَ يظُـن أنّ هُنَـا مثـل هُنـاك. رأى اللّجْلَجـة فتقـدّم الصّفـوف. «دقّ صَـدْره» متحزِّمًـا ومتلزِّمًـا بهـا: الله أكـبر.

١٠٢ الحُطام.

صـلى بعضهـم خلفـه، ونفَـرَ عنـه البعـض وهـم يتغامـزون: «ليـشْ هَـاي العِبيـد بِصـلّي بِينَـا؟».

دعـكَ مـن علاقـات السـماء بـالأرض يـا صَاحِـبي، فأنـا لا أملـك حُجّـةً تُؤهلُـني لاصطفـاف النّـاس ورائي.

قلْ لِي كيفَ أتعلّمُ لغة هؤلاء المفاتِيح؟

قالَ لِي: «القطّوسَة مُقعمِزة عَالرّوشة، تِشْبَحْ لوطَا»!

- دا كلام شُنو يا زول؟

- زي ما بقول لكْ.

- ما معنى هذا؟

- الـكلام دَه معنـاهُ بالعـربي، أنّ ثمّـةَ قِطّـة تجلـس عـلى البلكونـة وترنو إلى الأرض!

إيـه، ألغـاز وكَدايِـسْ، وكلام خَـارِم بَـارِم[١٠٣] هـو بعـض تسـالِي ليـل الغربـاء.

سـمِعتُ «قعْمِـزْ» كثـيرًا.. سـمعتُها في الطُرُقـات مقرونـة بسـبّ الدِّيـن: «قعْمِـزْ، دِ.. أُمّـكْ»!

سمِعتها من ربِّي، ومِن القائِد، ومِن الناس العاديين.

تقدمتُ للعمل في تشاركية بمدينة سِرْت.

١٠٣ كلام فارغ.

حتى يُقبل طلَبي ينبغي عليَّ تدبيج الثَّناء للفاتِح العظيم.

يتعيّن عليَّ أن أكتب أطول اسم لبلد في التاريخ: الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العُظمى، والأمر يتطلّب مني بعد ذلك أن أختم ثنائيَ للثورة بعبارة: الكفاح الثوري مُستَمر.. موظّف مكتب العمل طلبَ دمغةً وكذا دينار، دفعَها له السودانيون بالتّنْقِيط. ختَمَ الموظّف على طلبي بختم أخضر. ختمَ عليه بِعُنف: «كَوّ» ورَمَى الملف فوقَ تلٍّ من الأوراق، ثمَّ أومأ لي بالانصراف مِن شُبَّاكه:

- عَدِّي غُدْوة بيشْ تِشبحْ اسمك في لوحة الإعلانَاتو.

- الإعلانَاتو؟

- إيه، ما تَعرفْهاشْ؟

سألت السوّادين عن حجم تِلك الواو التي في لوحة الإعلانات. عدّيت على اللّوحة غُدوة وبعد غُدوة، وبعد بعد غُدوة، فوجدتُهم قد «شَبَحُونِي».

سألتُه:

- ماذا تَعنِي بكلمة تِشْبَحْ؟

أجابني بسؤال:

- والله إنتَ لَسودَاني مُسكَّرْ، إنتْ ما تِفهمشْ تِحْكِي؟

عـلى شاشـة مقهَـى شَـبحْتُ القائِـد يخاطـبُ مؤتمـرًا للِّجـان الثوريـة. اقـترحَ أحدُهـم خـلال تشـاركيات الحـوار طـرد السـودانيينَ مِـن ليبيـا.

قالَ في حضور القائِد: السوّادينْ هاذَايَا، «لبّظُوا لِبْلادْ».[١٠٤]

وسـأله الـذي لا يُسـأل: شِـينْ تِعـرَف عـن السّـودان؟ السـوّادين عِنْدهـم جامعـة في بلادهـم منـذ عـام ١٩٠٢، ثـم أطبـقَ عليـه قائـلًا: «قَعْمِـزْ، دِ... أُمّـكْ»!

مـا أحلاهـا مـن فمِـك أيُّهـا القائِـد، فبيتُنـا مسـقوفٌ بالزِنـك، وعندمـا يُطرقـع المطـر فـوقَ رؤوسـنا وتـشربُ الأرض ماءَهـا، تخـرج علينـا مِـن كراويـشِ الصّخْـر أشـياء وأشـياء.. مِـن «كوجِينـة»[١٠٥] بيتنـا العـربي خرجـت علينـا عقـربٌ سـوداء مِثـل حِـبر المَطابِـع.. قَـرَأَ العزّابـة غَمِّـي في ذلـك الصّبـاح، فقالـوا يواسـونَني إنّ عقـارب الرّطوبـة منزوعـة السُّـم. ألقـوا عـليَّ عطفهـم، ومضـوا إلى سـوق العمـل، بينمـا أخـذتُ طَرِيقـي عـبر الميـدان الكبـير لتصفُّـح وجـه حبيبـتي: لوحـة الإعلانـات.

في الطريـق مـن مدينـة الزاويـة إلى طرابلـس، ركِبـتُ سـيّارة بيجو، لا يبـدو صاحبهـا عـلى وِفـاقٍ مـع ثـورة الفاتِـح العظيـم.. جـاءَ عـلى موجَـة الراديـو صـوت جَبـلي لفهـد بـلَّان: شَـبعْنا عزُوبِيـة وهمـوم، وغِـيري وسـهر ومواعِيـد، بَدْنَـا وبَدْنَـا وبَدْنَـا.

---

١٠٤ خرّبوا البلاد.

١٠٥ المطبخ.

وفجـأةً أعقُبـه صـوت القائِـد. و، و، وقبـل أن يـشرَع القائِـد في الطرْطَـزة عـلى أمريـكا وصُويحِباتهـا، كانَ صاحـب البِيجـو قـد أغلـقَ مذيـاع السـيارة...

يا لَحتمية الدّخاخين!

يـا لَقلـبي، عـادَ مِـن بعـدِ النَّـوَى يطـوِي شِراعًـا.. إنـه الخـيرُ، معقـودٌ في مدائـن المِلـح إلى مـا شـاء الله، وهـؤلاء الأعارِيـب ليسـوا بمبعَـدة عـن التغـنِّي يومًـا مـا بالأكتوبريـات، لكـن الآنَ، ليـسَ بعـدُ.

٨

زمـن الزّمـن زَيـن كانَ السّـناجِك يُهاجـرون إلى «مَارنْجـان والحصَاحيصـا وسِـنّار وبُورتسـودان وكوسـتِي». كانـت تلـك المناطـق أكـثر طَـراوة مـن «هيوسـتون وسـيدني ودبي»، وكان الشّـغيلة فيها أكـثر نغنغـةً مـن أحفادهـم الذيـن ضربوا شـقوق البلـدان باحثـين عـن الـرزق في الخِلجـان ووراء البحـار.

كان العمـل متوفـرًا و«الأوفـر تايـم» يُـصْرَف في المحالـج يـوم الخميـس السـاعة الثانيـة عـشرة ظهـرًا، أمّـا عـن السـكن بالمـاء والكهربـاء فهـو مُتـاح في «بنْـك هَـاوُسْ». كان الكمْبـو للعُمّـال، بينمـا خُصِصـت بيـوت المحالـج للموظفـين.

العامـل الـذي يفـك الخـط، يمكنـه أن يجـد عمـلًا في إحصـاء الـوارِد مـن الحوّاشـات، أو يعمـل كاتبًـا في الغيـط، لكـن سـيد أحمـد «السّـنْجَكْ» لـم يكـن راغبًـا في وجـع الـرأس هـذا.. وصـلَ الكمْبـو بالقطـار، وفي اليـوم التـالي دبّـروا لـه عمـلًا في المحالـج.. تبـدأ الورديـة دغشًـا بـدري وتنتهـي ظهـرًا، والجيـب تقيـل.. «السّـنْجَكْ» -قلـع الأبـرول أو مـا قلعـه- السّـاعة «تَلاتَـة

كَكْ»، تلْقَـاه في بيـت البُقانـة.. يدخُـل إلى هُنـاك، ومـا يمـرُق إلا أنصـاص اللّيَـالي.. يصـل البيـت حَالِج[١٠٦]فيشـعُر الجـيران بمجيئه، لأنّـه كلمـا دبّ في اللّيـل، لا بـدَّ أن يَـدُق الكَـف ويغـني: «النفـوس الطّيبـة مـا كانـت شريـرة، أنـا والله طَارِيـكْ يَـا أُم دَرَقْ وطـاري العَشِـيرة»، ومـع شرْقـة الشـمس يمـرُق عـلى زريبـة المحالـج.

عـاش «السّـنْجَكْ» في الكمْبـو عـلى ذاك النحـو، فلـم يكـن لديـه اسـتعداد لِيفهـم لِـمَ اسـتعاد الإنجليـز السـودانَ ولا مـتى عـادوا أدراجهـم، ولا كيـف تحـرّرت الخرطـوم ورُفِـع عليهـا علـم الاسـتقلال.

كان يقـول: «أيْ تُـبْ»[١٠٧] كلّمـا سـمِع بتغيـير الحكومـة أو انقلابها. حـين يتحـدّث النّـاس عـن اسـتلام الفريـق عبّـود للسُّـلطة، أو تخـلِّي المشـير سُـوار الدّهـب عنهـا، أو حـينَ يتذكّـر اليتَامـى قرَضـة[١٠٨] النِّمـيري للشـيوعيين، كان يقـول مـن عِلـم فِطرتـه السـليمة: «هِـي حِكومـة الجـن دِي، يـوم مِتـين، يـوم مِتـين، كانـت مِسْـتَعدِلي؟».

سـمِع بانقـلاب الإخـوان عـلى النِّظـام الديمقراطـي فقـال: «عليـك أمـان الله أنـا مِمّـا جِيت الكمْبـو دا، أسـمع بي حكومتكـم دي تِتْقلَّـبْ، السِّـناحي، التَّقـول عندهـا وجـع مَصارِيـن!».

- كُلْكُمْ سوّادينْ؟

١٠٦ أي أن الأمر -مِن وجهة نظره- لا يستحق العناء.

١٠٧ سكران.

١٠٨ ضربة.

صرخَ بهـا «فـرج الشـيباني» في وجهـي، وهـو يعـني أننـا كُلّنـا عِبيـدات.

قلتُ له:

- وباهِي باهِي.. وإيشْ فيها، إننا عِبيداتْ؟

وهبْتُـه جُـلَّ اهتمامـي وأنـا عـلى يقـين تـام بِحِكمـة تقـول: «العِريـبي لي زمانـكْ أكان رَخيـتْ ليهـو بيطلـع فـوق راسـك».[١٠٩]

تذكـرتُ هـذه الحِكمـة وأنـا في قبضتـه داخـل السـوق القديـم في سِرْت. هـذا الليـبي الأعْطَـش يريـدُ أن يأخـذني بجريـرة غـيري.. قـالَ إن سـودانيًّا هـربَ مـن خِدمتـه ولـم يـترك وراءه أثـرًا غـيرَ جـوازٍ أزرق.

في سِرْت -مدينـة القائِـد- التقيـتُ عضـوًا بالحِـزب. أطلَعَـني عـلى «وثيقـة مؤتمـر أسـمرا للقضايـا المصيريـة». تجادلنـا حـول اللّامنتمـي وقرأنـا معًـا أشـعارًا وتقاريـر للمُعارَضـة السـودانية، وتبارينـا في تسـبيك حلّـة العزّابـة، الموسـومَة بـ«القطـرْ قَـامْ» ولـم نكـن وحدَنـا تُعَسَـاء المدينـة.

في المَلَجـة -سـوق الخُـضرة- في لُغـة الجماهـير، صادفنـا محْوَلجيًّـا للسـكّة حديـد مـن أهـالي «الجزيـرة مُقـرات». كان يبيع «البُرتُـكان الدَّمِّـي» ويقـول لزبائنـه إنّ موالِـح الصّحـراء تتسـلل مبـاشرة «مِـن الفـمّ للـدّمْ».

١٠٩ «إن تواضعت معه سيحتقِرك».

قـال المحْولجـي إن شـيخ الحركـة الإسـلامية هـو مـن قـذفَ بـه إلى الغربـة. مـن حَالـه الـذي رأيـت، لا أخالـه عـادَ إلى هـذا الوطـن.

إيه، ما أقسَى العطش في الشتاء.

بعـد شـهورٍ مـن تجضيمـي لشـيباني مدينـة سِرْت، كنـتُ أتسـكّعُ في حقـول «صرْمـان» بـينَ شـجر برتقـالٍ يسـافر عـبر طريـق السـاحل إلى تونـس. كان الشـتاء ماثِـلًا حـينَ داهمنـا ثلاثـة مـن شـباب الجماهيريـة داخِـل بيـت العزّابـة. بُطان[١١٠] في عُمـر طـلاب الثانـوي جـاءوا يتسـلّونَ بِنـا.. الدنيـا غُربـة ومطـر، وقلنـا لازم نكـرِم مثواهـم، حيـث لا أحـلى مِـن الفطـير باللّـبن.

أسرجـتُ الصّـاج للعُواسَـة. تلـك الخِدمـة الـتي تأففـتُ عنهـا في تُـكُلْ[١١١] أُمّـك الحنـون، تسـوّيها هِنـا ولا عـلى كيفـك..

كان الـبرد يدخـل جسـدي مثـل السّريحـة، وأنـا أُهـيئ لهـم صَحَنًـا مُترعًـا بالقرمـوش المعطـون في الحليـب. قدحًـا يكفـي لإشـباع كلّـة[١١٢] مِـن الطيّانـة في «جَزايِـرْ بـرَّه».[١١٣]

وأكلتُها في خاطري عندما ضحكوا.

أكلتُهـا، حـينَ نفضـوا رمـادَ سـجائرهم، وقالـوا: «هَـادَا عشـاؤكم

١١٠ صِبْيَان.
١١١ مطبخ.
١١٢ ثُلَّة.
١١٣ جزُر نيلية بعيدة. النص من أغنية حماسية لسُكّان مُنحَنى النيل.

يا سـوَّادِين؟».

ثمَّ وجّهوا ليَ اللّومَ بعد غُلبِي وعُواسَتي:

- والله هَادا، حِنّا نديروهو للسعيّة يا رَاجِل.

- يلْعَنْ «...»!

أكلتهـا في خاطـري وألحقـتُ نفـسي بلفائِـف رَفيقـي. مُعارضتنـا الوطنيـة تُقـدِّم جَهـدًا نظريًّـا مُقـدَّرًا، ونحـنُ اشـتراكيان مـن زمـان الجُـرحِ تلاقـت خُطانـا عـلى اجتنـاب العَسَـس وعـلى الهمْـس بأحاديـث مُغلّفـة عـن المسـتقبل، وعـن تجـاوز الفَاقَـة بأمنيـات الشـغّيلة.

في تلـك الليلـةِ طـارت إلى ذِهـني حقيقـة أن ضعـف المثقّـف يورِثـه الـذُّل!

في سـوق سِرْت القديـم الـتي تشـبه سـوق العناقريـب بـأُم درمـان وخزَتـنِي نظـرات الشـيباني.. عينـاه الماكرتـان تركتَـا أثـرًا بالغًـا في نُخاعـي الشّـوكي. تربّصـني وقبـض عـلَى رقبـة قميـصي، وأطـاح في وجهـي جـوازًا عليـه صقـر الجِدْيَـان:

- هادا أخوك خَنَبْنِي[١١٤] ويش أسوِّي لَكْ؟

تجاهلـت تهديداتـه وهـو يُعيـد عـليَّ: ويـشْ أسَـوِّي لَـكْ، ويـشْ أسَـوِّي لَـكْ إنـت؟

---

١١٤ سرَقَني.

نظـرت إليـه بـبرودٍ كـسقْعة الـدّلّاع في كَانـون[١١٥] فهـذا النـوع مـن الرّعيـة يخـاف الصـوت العـالي:

- اخْلَع نعليك يا هذَا..

- خيركْ يا سوداني؟

- أنـتَ قليـل الحِيلـة أمـامَ سَـارق، فكيـف تجـرؤ عـلى لِياقـة قميـصي؟

- هَادا أخوك، جِيبْلِي إيّاه.[١١٦]

-أجِيبو ليك كمان؟

- إيه، تَوَّا جِيبْلِي إيّاه..

- إن شاء الله يجيبوك في «قُفّة»، قول يَامِينْ!

- شِينْ تِقولْ؟

- أنا شغّال في الإنتربول عشان أجيبو ليك؟

بـدت عـلى وجهـه أطيـاف مـن القلـق، فعُـدتُ إلى تخويفـه بلسـان الـذي يُلحِـدون إليـه:

- دعْنَا نحتكِم معًا للقَانون.

---

١١٥ مِثلَ برودة البَطّيخ في الشتاء.

١١٦ ائتِني به.

- إيش مِنْ قَانون؟

علمت فيما بعد أن فرج الشيباني هذا، تحاج بهذه الطريقة مع سودانيينَ كُثر وأطاح بهم، لكنه هذه المرة يواجه عبْدًا يحدّثه عن العدلِ والمساواة، في دولةٍ يحوزها فرد.

عَدلتُ عن تذكيره بالقانون، عندما رأيت حاجة أمثاله إلى تطبيق الشريعة فيهم.. قلت له على رؤوس الأشهاد: أنت كمُسلم تعلم أن القرآن ينُصُّ على، أَلَا تَزِر وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى.. أليسَ كذلك؟

وتجمهرت الجماهير.. تجمهروا يستمعون إلى أكحل يتفوّه العربية كأنّها مِن بَنات خياله.

زانَ الصمتُ المكانَ فأصبح من تربّصَ بي ضئيلًا وأحدَب.

وهو في تلك الحال عاجلته بوكزةٍ لم يكُن يتوقّعها.

لكزة هي «السِّمْ القدُرْ عَشَاهُو».

رفْسة من مَتْنِ كتابِهم عندما يسمعها مني سيوقِنُ أنني مندوب ملِك ملوك إفريقيا في هذا السوق.

قلتُ وأنا أُرسل بصَري فوق رؤوسهم، كما هوَ شأنُ القائِد في أيّامه تِلك:

- أمّا إن أردت الاحتكام إلى قانون أول جماهيرية في التاريخ، فاعلم أيّها الشيباني أنَّ قائِدَ ثورة الفاتِح من سبتمبِر، قال في

صفحة ٦٧ من النظرية العالمية الثالثة إننا في عصر الجماهير، وإن أهمية الشريعة تكمن في كونها الفيصل لمعرفة الحق والباطل، وإنّ الدِّينَ يحتوي العُرف ويستوعبه...

تعمّدت تحديد رقم الصفحة بالرقم ٦٧ وكنت أعني كيف ينهزم البدوي بأساطيره...

وقبل تتِمّة المنقوص الذي كنت أحفظه عن ظهر قلب، كانَ الشّيباني قد كَفاني شرّه وتبدّدَ في الحشْد..

- «ودّ أُمْ ضِبْ»![١١٧]

ثم انتفضَ دربي نحوَ صخيراتٍ يتكسّر موجها. هناكَ حيث لا حيث، وقفتُ أمام زُرقة البحر أُدندِن: «جَاي لِيه مِن بيتكُمْ، جَاي لِيه؟».

ألفَى السّنجَكْ نفسه وحيدًا في بيت البُقانة، وما استحلت له القعدة، فنَادَى مِن تلقاء نفسه:

- الخَرَابات ديلْ مَشوا وينْ؟

كانت «بِتْ مَحَبوبَة» على علمٍ بزيارة الحكومة للمحالِج كانت أفهمَ منه في الشأن العَامّ.. قالت له:

- إنت يا سَجم الرّماد قاعِد فوق إضنيك، ما سِمِعتَ إنو الحكومة جَاية تزور المحَالِج؟

---

١١٧ «ودّ الغلْفَاء».

جَبَـدَ «السّـنْجَك» شـيئًا ليـسَ بالقليـل مـن قطّـاع المريسـة، وقـال: جَايَاكُـنْ الحَكومـي البِتْقلَّـبْ دِي، ولّا شِـيتًا تَـانِي؟

ودارت الأيـام القهقـرى، العُمـر إلى نَقـاص، والجـداوِل إلى يَبـاس... أهـل دارفـور حـتى ذلـك العهـد كانـوا عـلى تـراضٍ مـع دولـة الصَّحابـة الـزُّرُق في الخرطـوم، لأنهـا وعدتهـم بتطبيـق الشريعـة.

و، و، و.. ودخلنـا السـودان مـن صحرائـه الكـبرى. سـافرنا ثـلاث ليـالٍ في التيـه جنـوب شرقي جبـل العوينـات. ذاك جبـلٌ مثـل الهـم في القلـب.. مررنـا عـلى شـواهد قبـورٍ مـات أصحابهـا عطشًـا. دفنهـم مَـن دَفنَهـم، فالقبـور ليسـت شـأن المـوتى بـل شـأن الأحيـاء.

الصحـراءُ مـسرحٌ ينعـقُ بالجفـا والشـوقُ لا يُـدارَى، ومـا كل شيء تفضحـه عـين الشـمس.

سفّاية الرمال لا تحتمل على صدرها بِذرة إنسان أو نبات.

هـذا خـلاءٌ تشـتاق فيـه لساخوتَة الذُّبـاب. لا حيـاةَ هُنـاك، ولا شيء تُناجيـه سِـوى خيـوط رمـالٍ تتهايـل ونجـوم سـماءٍ ترسـم وُجهـة السـادرين.

دخلنـا واديًـا زاحِفًـا. مسـاعدية اللـواري يعرِّفـون الـوادي بـ «المَطـسْ» لأنَ مـن يتباطـأ عنـده يسـيِخ في الوحـل.

السـائق أمـر مسـاعدية اللّـوري بتنفيـس اللسـاتك، وجـاء بإطـارٍ

ضخـم رمـى بـه في حُفـرة حجـزَ بـه حوافهـا. هـل لهـم كـنزٌ في هـذه الفـلاة؟

نـزلَ المسـاعد داخـل الحُفـرة وبـدأ «ينكُـت» الرمـال. حسـبناه يسـخرُ منّـا حـين قـالَ إن المـاء عـلى عمـق متريـن. بعـد أن ناصـفَ الحفـرة طـولًا صـارَ يرمـي علينـا الـثرى حـتى ظهـرَ سِرُّ الحيـاةِ وامتلأنـا بالـرَّواء. المـاء مُـترعٌ في الحـوض النـوبي، وعِيـس دارفـور يقتُلهـا الظمـأ!

عندمـا بـدأ المسـاعد يحفـر بالكوريـك، سرَتْ بيننـا همهمـة.. ظننّـاه يسـتبقُ الحـوادثَ ويحفـر قـبرًا لأحدنـا.. إن كان الله قـد سَـقانا في هـذا التيـه فلسـوفَ يُلهمنـا الصـبر عـلى العيـش في دولـة الأحـزان.. إن شـاء يرزقنـا مـا يُثلـج صدورنـا، وإن لـم يشـأ فـلا رادَّ لقضائـه.

شربنـا مـن جمّـامٍ مخبـوء تحـت قدَمـي دارفـور الحزينـة. تلـك الفـلاة كانـت مجـرًى للنيـل في زمـانٍ قديـم، والآنَ ذاك الـوادي هـو ميـدان للشِّـفتةِ أهـل السـلب والنهـب.

قال السوّاق: المكان دَه ياما ماتوا فيهو ناس!

كان خبـيرًا بالصحـراء. ألقـى علينـا حكايـات مُهشَّـمة الأطـراف عن شـياطين تمـارَوا لـه في الطريـق.. نزلنـا -نحـن الـرُّكاب- مغتربـو ليبيـا، بعضنـا يحمِـل الصّاجَـات وبعضنـا بالعيـدان نزقّهـا تحت اللّسـاتِك، واللـوري يحْبـو في رُبعنـا الخـالي نحـوَ دار صَبـاح.

اشـتغلنا مساعدية.. خدمنـا اللّسـاتِك حـتى ننجـو مـن المبِيـتِ هُنـاك. قـال بطـل الـلّا جـدْوى -السـوّاق- إنـه رأى في أحـد أسـفاره مـاردًا أثـارَ العَجـاجَ، وأن «المـارِد خاطبـه بصـوتٍ فيـه نخيـخ أن يشـتِّت[118] وإلا»!

اسـتطردنا الأحاديـثَ عـن الجِـن ونسـينا إلى حِـين أن شـياطين مِن الإنـس ينتظروننـا في قارعـة الطريـق، فلـكل صحـراء مُجنّدوهـا، وفي كل مـكان مـن هـذه الدنيـا عَسَـسْ.

أينَ المفر؟

في ليبيـا كانـت العـشرة دنانـير تكفـي مونـة الشـهر. في بيتنـا العـربي كُنّـا نترابع[119] مـصروف بيـت العزّابـة. القـادِر عـلى الدفـع يدفـع، والعاطـل يجهِّـز الحلَّـة ويـضرب عجـين القُرّاصـة.

في ليبيـا كان مـن الأفضـل أن تشـتري ثوبًـا جديـدًا بـدلًا مـن غسـل قميصـك القديـم، عِندمـا ثَـاروا «قلَبوهـا مَهدِيّـة»، فهـل للجماهـير في مثـل ذلـكَ أجـر؟

العمـر إلى نَقـاص والجـداوِل إلى يَبـاس، والقـادة يصدقـون أحيانًـا. لاذَ «السّـنْجَك» برُكـنِ البيـت الـذي كان عامـرًا. لـم يعُـد في مُقدِّمـة المُحتفَـى بهـم كمَـا هُـو حالُـه في الزّمـن الجميـل. كان هديـرُ الأجيـال وراءه يـأتي عـلى أُذنيـه مثـلَ طَنـين البعـوض.

---

١١٨ يُغادِر المَكان.

١١٩ نتَقاسَم.

- يا خرابة، جِيبي الشيء دا.

وقبل أن يظفَر بشيئه، سمِع «السّنْجَكْ» جَلبةً في الخارِج.. افتقد «بِتْ مَحَبوبَة» التي كانت قد انطلقت في الخارِج بالزغارِيد. كانَ مُستلقيًا يسمعُ طشاشًا لِصفائح وكوْكَوة لبراميل وتكبير وتهليل، حتى خُيِّل إليه أن زيارة الحكومة للمَحالِج قد تحوّلت إلى حلبة ذِكرٍ ومدِيح.

كان وحيدًا في بيت البُقانة، يُمسكُ بين الحين والآخر بِتلابيبِ النِّداء:

- يا خرَابة، جيبي الشيء دا.

وعندما تأخرت استجابة الخرَابَة خرجَ «السّنْجَكْ» إلى حيثُ الناسِ. وجدَها مُمسِكةً بجردل التوريدة، تسكِلب، وتُزغرِد، وتِتْفدَّع..

قال لها: طرقعتي الجردل الله يَازَاكِي[١٢٠] ادخلِي لَا جُوُّه.

- ما بدخُل، ما بدخُل، إنت خاتي فوقِ الحبِلْ؟[١٢١]

- ادخلي جِيبي الشيء دا.

ولم تحفل به الخرابة...

وقفَ بين سِتّات البيوت اللائي ينقُرنَ على الصفائح:

١٢٠ الله يؤذيك.

١٢١ هل أنت زوجي؟

- مالكِنْ يَا خرَابَات، الحكومِي انقلبت تَانِي؟

قُلنَ له بصوتٍ كأنه كورال:

- السّنْجَكْ يا سكْران يا حيْران، ما شايف القمْرا خنّقَتْ؟

- سيد أحمد، يا المَا بتخاف الله..

- إنتَ قايل القمرا دي بتخنِّق ساكِتْ؟

- يا غبيان، يا المَا حَاسّي بي حيلَكْ، الخُسوف دا ما شَايفو؟

قال لهُنَّ بعد أن رفع رأسه وتحقّقَ من حدوث الظاهرة الفلكية:

- وكَمَانْ يَكورِكِنْ[١٢٢] القمْرَا خنّقت، القمْرَا حنّقَتْ.. نَانْ مِي خنّقَتْ مِنْ عَمايِلْكِنْ، وَكِتْ بِقِيتِنْ تَسوِّنّها رِقيْقِي![١٢٣]

مضى الزمانُ وكسفت الشمس وخنّقَ القمر كثيرًا، وعِتْمَان الذي كان «يُكاجِرني» في الحِلّة، أصبحَ «شعبيًّا» ومُعارِضًا للنظام الذي أنتجه.

الحنين الذي في الجوف قادني إلى مسقط رأسي. حزنٌ دفيق دفَع بي إلى حِلّة «تنْقَسِي».

رفعتُ الفاتحة ولملمتُ دثَار نفسي وخرجتُ من بيت البُكاء

١٢٢ يصْرُخنَ.

١٢٣ يُتْرِعْنَ المَاءَ في المريسة.

أتفقّـدُ مراتـع صِباي.

دروب زمـني الخائـن امتـلأت بأرتـالِ الحديـد الخُـردة. سـيارات مُتهالكـة مـن مُسـتهلكات عُربـان البحـر المالِـح، بعضهـا يزحـف وبعضُهـا رابـض أمـام الحيشـان.

مضـت الأيـام التي كُنا نكـرُب فيهـا «الصّرِيمي»[١٢٤] ونركـب حميرنا، لا نتكلّـف إلا عنـاء سُـقياها وتقييدهـا في الـبَرَوِدْ. لا بنشرجـي لا إسـبيرات ولا بنزيـن. كانَ الـنزول إلى التِّحتانيـة والعـوم في البَحـر، كافيًـا للمعـاش والسـلوى.

وجدتُهـم قـد هجـروا ضفـاف النيـل وقعـدات الليـل فـوق رمـال القمـر. شَـدَهتْهُم الحيـاة وجـارَ عليهـم النهـر سـنةً بعـد أُخـرى، فجافـوه حـتى جفَاهـم. الضِّفـاف ظمـأى وأنفـاسُ النيـل الـتي كنـت أكرُفهـا وأنـا في «القبـولاب» أصبحـت ذِكـرى. دخلـت الكهربـاء إلى المشـاريع الزراعيـة، فتقلّصـت خُـضرة الشـطآن كمـا تتقلّـص أيـام العمـر..

الجـروف الـتي ترتـوي مـن الفيـض أضحـت جَديبـة تسُـفّها الريـح. نبـات السِّـعدة العِطـري، كان أحـد وشـائجي بالبلـد. بُقـول السّـلّوكَة ورائِحـة الصِّـير ولمعـة الأسـماك الميِّتـة في المجـرى، كل ذلـكَ أضحـى وشْـمًا في الخيـال، ولا شيء يبـدو أخـضر في شـاطئنا، عـدا شُـجيرة الفـأس المُسـتَحِية مِـن اللّمـس، كأنّهـا السـامِري.

---

١٢٤ اللِّجام.

لا شيءَ يُذكـر غـيرَ طُفيـل «الكَدْرَبـاس» الـذي تتقاتـل عليـه عصابـات المافيـا في أمـيركا اللّاتينيـة.

آلاف الأفدنـة كانـت تنتـج القنقـر واللوبيـا والفاصوليا في مواسـم التّروع.

الجـروف أضحـت قاعًـا صفصفًـا بيـدَ أن القمـاري لـم تيـأس مـن انتظـار فجـرٍ طالِـع غـدًا.

هديـر رؤوس الأمـوال يـدوي في الأُفـق. جـرّارات المـال الخليجي تمخـر سـهلَ «آمـون رع» غـير عابئـة بمـا في جوفه مـن أسرار.

كانَ لنـا سـوحُ الفلـوات والأرض العَفَـا وجِفـول الضُّبـار في العتامِير.. يقـال إنهـم -حُكامنـا- باعـوا كل شيء هنـاك لصاحـب الرِّيـال والعُقـال!

قريـتي المحشـورة بـين جبـلٍ وماء، اسـتعصت في المـاضي عـلى دراويـش المهديـة، لكنّهـا بيعـت تـوًّا لمطوّعـينَ مـن بـلاد النفـطِ بوعـدِ مـن لا يملُـك لمـن لا يسـتحق.

أهـلي لـن يتمـردوا حـتى يعرفـوا مـا إن كانـت مُصيبتهـم آتيـةً من دُول الجـوار العـربي أم مـن فُوُهـات «سـدّ النهضـة»، أم هـي ذات الفاجعـة الـتي تحـدّثُ عـن نفسِـها في الخرطـوم؟

سـمعت خَطيـب الجامِـع يجرّعهـم مزيـدًا مـن التنويهـات. يقـول لهـم: «بيِّضـوا النيّـة فـإن مصيبتكـم تنبـع مـن سـويداء قلوبِكـم»!

الحكومة التي لم نكن نعرفها إلا في موسم الانتخاباتِ أصبحَ لديها مسجد في كل حي.

الحرُّ شديد. ارتفعت درجة حرارة الأرض ومعها الأسعار. المدينة التي هربتُ منها دخلت تُكْل البيت.

أجيال جديدة تمُر أمامي، ولا يعرفني في بلدي إلا العواجيز. أمِّي أيضًا تغيّرَ كيفُها مع تقادُم السنين. أُمّي استبدلت بـ«حُقة التُمباك» الكمُّون الأسود، تكرفه وحينًا تمضغه، كلما وطِئت خَزَاز الصَّمت.

لم يعد ممكنًا تضرُّعي في جزيرتي التي خرشها الهدام وتناثرَ فوقها نبات الحلفا، وتوحّشَ فيها المِسكيت. موطني الذي كان مُترعًا بالشبابيلِ امتلأً بالقوارض، لكن أهلي لن يتمردوا، أملًا في عودة المسيح عِند ناشئة الليل.

وجدتهم مثلما توقعتُ. تغيروا على نحو ما بعدَ أنَّ حاصرهم طريق الأسفلت، بعدَ أن فقدوا حيازاتهم لأراضِي الكلّلرو.[١٢٥] استقدَمت الحكومة مستثمرين أجانِبَ أخذوا عينات من الأرض وبعد قليل ملأوا الفضاء بعتادهم الثّقيل. أرض الكلّلرو تُحاذي من جهة الغرب سهل آمون الذي ما زال يحمل ذات الاسم -أمنتجو- منذ عهد الفراعِنة.. جبل البعاشيم يقف في أفق الشّمال، على جانبه دبّةُ يسكنها رجل سائِح يُقال له «الجوداني»، ذاك الفقير الذي يبدو

١٢٥ سهْل طِيني في صحراء دنقلا العجوز.

ويغيـب في الـصّيّ.

وجدتهـم كمَـا كُنْـت، ليسـوا أحسـنَ حالًا بعـد تطبيـق الشريعة، ولا أسـوأ بعـد تَحييدِهـا. النيـل يسـتقرُّ في تفاصيـل حياتهم رغمَ نزوحهـم بعيـدًا عنـه. وجدتهـم يلتحفـون الأُمنيـات وينتظـرون الـرّي مـن مشـاريع الاسـتثمار الـتى تُنتِـج براسـيم تُشـحَن جـوًّا وبحـرًا لعلـف خيـول المُتعَـة وأبقـار الفريزيـان في بـلاد النّفـط. كنّـا قديمًـا نسـافر بلـواري «السِّـفِنجة» واليـوم سـائق البـاص فائـق التكييـف، يبـدو حريصًـا عـلى تشـنيف أسـماعنا بلواعـج المُغنيـين في ديـار الشـايقية.

مُغنواتيـة يُطمـبرون لسـان الحـال الـذي غلّـبَ الغـلاَّب. أُغنياتهـم المأسـاوية الباكيـة أصابتـني بالضيـق، مثلمـا خنَقتـني خُطبـة إمـام الجماعـة السـلفية في محطّـة رمسـيس.

أغنيـة لـ«محمـد أحمـد يارِفـاق» تحـكي قصّـة شـاب هَـجَّ مـن البلـد إثـرَ فشـلِه في تسـديد سـلفية «البنـك الإسـلامي». طنْـبرة حـادّة عـن «هيثـم» الـذي عشِـقَ أُختـه مـن الرِّضاعـة. الدّرويـش «عـوض سَـارِي الليـل»، زول الله، الـذي خـرج ولـم يَعُـدْ. و«عيّوشـة» الـتي تقتـاتُ مـن الكُوشـة.. مـراثٍ لا أول لهـا ولا آخـر، يسـمعونها ويصفقـون لهـا ويتمايلـونَ ويأخـذونَ عـلى إثرهـا الشّـبابيل!

الأسى أصيـلٌ في المـكان، والمُغنـونَ المطاليـق عـلى حالهـم الـذي يزركشـونَ بـه سـوريالية العِشـق.

مضت إلى غير رجعة نقرشات «أولاد كرم الله» لـ«زهرة جنايـن الغابـة».. لقـد اندثـرَ حنينهـم للقمـاري: «انـزِلي مـن فروعـك مـرة للساسَـقْ فـترْ، آه يـا قُمريـة، مـافي عدالـة، لي زولًا صبر؟»

مـاتَ «إسـماعيل ودْ حـدّ الزيـن» الـذي قـالَ ذاتَ غربـة: أنـا اتْوكّـرتَ في بلـد بَنَاتـا، بَـلَا الخُيـول الجامحـة فـوق الرّيـح تَشَـابي.

لا شيء في بـلاد السـودان غـيرَ نبـوءة الشّـاعِر «حِمّيـدْ»، الـتي قالهـا يـوم انقلـبَ عسـكر اليسـار عـلى الجنـاح المـدني داخِـل الحِـزب.. لا شيء غـيرَ: «حيطـة تتمطّـى وتفلِّـعْ، فِي قَفَـا الـزّول البَنَاهَـا»!

عـلى طريـق الشـمال لا أكـثرَ مـن محطـات القبانـة. لا أكـثر في ذاك الشِّريـان مِـن اسـتهبال السياسـيينَ عـلى مواطنيهـم.

لا جديـدَ غـيرَ أعمـدة وأسـلاك تُداقِـرُ أسراب القَطَـا بـين مَـرَوِي والخرطـوم، ولا كهربـاء.

رأسُ المـال حـازَ مـزارِع شاسـعة في ميْعـات «بيّوضـة»، وقـيزان «أبـو ضلـوع» ورواكيـب «التّمتـام»[١٢٦] لوّثتهـا أمبولات المشـاريب الفارغـة.. فضـاء الصحـراء الكـبرى يعُـج بالبلاسـتيك وروَث المدنيـة يتناثـر عـلى جانـبي الطريـق.. اقتربـت أُم درمـان مـن شِـتيل المِـشْرِق، لكـنَّ آثـار النعمـة تـتراءى كاليقـين عـلى شاشـات التلفـزة.

١٢٦ التّمتام أعرابي اشتهر باللّعثمة، كان أول من افتتح مقهى في ذلك التّيه.

سألتهم السؤال التقليدي الذي لا شك يسأله كل قادم إلى تلك الديار:

- أخبار «أبو سُوسة» شُنو؟

تسألُهُم عن أغلى مقتنياتهم -البلح- فيصدونكَ بسؤال استنكاري: يَاتو تَمُرْ؟

النوبيون شديدو الخشونة في مسائل الأرض. هم مسلمون بالفِطرة، لكن المرأة يمكن حرمانها من الميراث.. يمكن حرمانها من نِصف حظها، ومِن الثُمُن الذي تُقِره الشريعة!

من أجل هذا الرُّطَب الحلو يتماسخونَ، وبِرَحيقه تطيب لياليهم.

رفيق الصِبا -ساتي نُقد الله- بيني وبينه بخور بواطِن ودخاخين.. قالَ لي:

- تقصُدْ شُنو؟

- أقصُد البَلَح الشّايفَاهو عينَكْ دِي.

- العيدان دِي؟

- أيوه العرْجون دَا.

- عليك أمَان الله، حصاد الموسم كلّو بِقى مَا بيغطي حقّ الضّريبة، خلّيك مِن البيقلعوهو ناس الزّكَاة.

يا له مِن زمانٍ شحيح..

الخزرجية تـأتي في اللّيل.

امرأة ناعِمة صلِدة كخَشبِ السّونْكِي.

تسمع مني كلامًا ترميه وراء ظهرها. يا لَه من ظهرٍ ظَهير.. كم مِن جريحٍ مرَّ تحت قوسه، وكم من قتيل؟

هَمَستْ لي ذاتَ مساء بلهجة القُرعان الدّافِئة:

- لِم هجرتَ بِلادك إن كُنت تُحِبّها؟

- عَشان أشوفِكْ!

إيه، ما مَضى لا يعود..

هي كذبةٌ أحتاجُ إليها في ذاك المقام. كذبةٌ لا تُبقي ولا تَذرْ.

تلكَ امرأةٌ لا تَشيخ أبدًا، وهذا موطِني يعُجُّ بالعواجيز وبغُزاةٍ يتحفّزون الزحفَ من جِهة بُحيرة ناصِر. هاجر غالبية الشباب لكنهم يرسلون من المنافي البعيدة ما يكفي من ريالاتٍ و«دلَالير» تصرفها اللجان الشعبية في حفر وتجهيز القبور. دخلت الكهرباء للبيوت فاكتَنَزت ثلاجاتهم بالأدوية. لا قيمة للوقت عِندَ مَن يحسبون ساعات اليوم بحبوب تسكين أوجاع المفاصل.

قال رفيقي: لو قاصِد التّمر البيشربوهو، عليك أمان الله

نـاس حُكومتـك ديـل، عاملـين فيهـا صحابـة عديـل. وأكان قاصِـد التَمُـر البِيَاكلوهـو، نحـن عِدِمنـا السُّـنون، وأسْـعار ودْ لقّـاي إِنـتَ بـراك شـايف. المحصـول «دقَّ الدّلَجـة» في السـوق، ومـافي شِـيتًا جَايِـبْ لينـا السُّـكَري والضّغِـط، غـير الموضـوع دا.

إيه، لا وطنَ إلا الذي ترسمه في خيالك!

سـاعتها جـالَ في خاطـري ذاكَ المـرّوكي.. إنّـه مـرؤوسِي الـذي يُحـق لـه أن ينتهـرني:

- هيّا برَّه، هيّا برَّه.

انتهـرني بصلـفِ رئيـس عـربي لا يتوقـع أبـدًا اسـتشراء ثقافـة حقـوق الإنسـان فـوق السـماء الدنيـا.

قلت له بالسِّياق الذي يغيظه: برَّه وين يا مَطرْطَشْ؟

فقال لي:

- هيّا، «الزَّ»!

-إنت بِقيت ترفِدْ على كيفك زي ما بيعملوا الإخوان؟

مسـكين هـذا المـروّكي، إنّـه يحتفـي بلمْعـة حِذائـه أكـثر مِـن الوَهـج الـذي قـد يكـون كامنًـا في عقلـه. مئـات الكيلومـترات تفصـل بينـه وبـين الـذّات الملكيـة، ومـع ذلـكَ فهـو يخـشى الـدّرَكْ!

في ساعة صفاءٍ بيننا قالَ إنه دخل السِّيما في مرّاكِشَ، وإنّه عاشَ مع «أوليفر تويست» عذاباته، وحكى عن أنه شاهدَ الصّقيع يَصُد «نَابليون بونابرت» عن عرين القيامِرة... المرّوكي يعرِف كل هذا لكنه لنْ يُدرِك إلى يوم الدين، أنَّ وَطني الأكْحل يحكُمه الكِيزَان.

لِمَ يُحدِّق فيَّ هكذا، فأنا لم أقل شيئًا يُذكر. لم أقل إنهم «خوّنة»، ولا قُلت إنّهم «مُقمِّلين»!

لا يمكن لرئيسي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن يبلُغَ مَرامِي هذا المُصطلح. إنه مثلَ حواريي «عبد المَجيد الزّنْدَاني) في اليمن السّعيد، الذين يوشك الواحد فيهم أن يفضح عورته ليقولَ إن مثاله المقدس هو دولة الصَّحابة الزُّرق في الخرطوم!

هذا المرّوكي لا يُدرك إن كانت كلماتي هذه شتيمة، أم هي شكرٌ جزيل. بيني وبينه فوارق ابيستيمية. إنّه من شاكلة الذين يبتغون خبزًا من سائقي الدبابات، ومع ذلك، ها هو يُعنِّفُني: حُطْ الواحِدْ عا الواحِدْ.

- أخْتْ شُنو، فوق شُنو يا زول؟

- حُطّ الواحِدْ عَا الواحِدْ، «الزَّ».

- يَا زول، قول لي كَلام بالعربي.

ويمتلئ المرّوكي بالغيظِ كونَ أحد النّوق العصافير مِن

بـر السـودان، يطلـبُ إليـه أن يتفصَّـح في بـلادٍ يحكمهـا أمـين القوميـةِ العربيـة!

- خيرك، «الزَّ».

- مَالكْ تنْبَحْ يا زول؟

- قلْت لكْ، حُط الواحِدْ عَا الواحِدْ.

- إنتَ ما فيك راس؟

- دِ. ربَّكْ. سُوداني رُبع دِماغ.

- وكمان تسِب ليَّ الدِّين؟

أعلنـتُ غَضَـبي في بِـلاد لا يُحتّـجُ فِيهـا عـلى مِثـل هـذا، لكنـني لـن أُسـامِحَهُ في شـأنِي الآخـر:

- أنا رُبع دُماغ؟

- إيَه، يلْعَن «دِ..كْ»!

- تـالله يـا مـرّوكي، لـو لقِيتَـني في غـير هـذا المـكان، لألقيـتُ عليك مقاطـع أحفظهـا عـن ظهـر قلـب مـن عوالـم «جَـان جِينيه».

- سكِّرْ فمّكْ.

- لـو قابلتـني يـا مـرّوكي في غـير هـذا المـكان، لسـمعتَ مـني كيـف كان يحيَـا «محمـد شُـكري» في «طنجة».

- إنت تِحْكِي عن طنجة يا عِبيد «الزَّ»؟

- واللهِ لـولا أن قـدري يحـاصِرني بـين هـذه المَفاتيـح، لألقيـتُ عليـك محبّـةً مـني.

في تلـك السّـاعة كُنـت أتطلـعُ في وجـه جبـانٍ يخـاف انقطـاع الـرزق.

قلـت لـه هـذا حـتى أراه يرتعـش.. لقـد أحرقـت اللجـان الثوريـة مـا وقـع في أياديهـا ممّـا هـو مكتـوب بالإنجليزيـة.. لُغـة الأعاجـم تُعـدُّ حرامًـا في جماهيريـة الله، مثلهـا مثـل لِبـس البنطلـون في دولـة الصّحابـة الـزُّرق.

وكأنـه تعِـب مـن مُجـاراتي... صمتـه الفُجـائي أغـراني بمزيـد مـن الرّمـي، فقلـت لـه: ربمـا يـأتي يـوم أيهـا المـروكي الجميـل، فتكـون أنـتَ وحِـذاؤك اللامـع هـذا، أبطـالًا في رِوايَـتي الـتي سـأكتُبها بعـدَ هـدوء العاصفـة..

- حُط الواحِدْ عَا الواحِدْ.

- يا زول إنت داير شنو؟

أنـا لا أفهمـه وهـذا يسـتهويني لـشراء الوقـت. هكـذا تفعـل «ثـورة الإنقـاذ» مـع معجبيهـا، مِمّـن تصالحـوا معهـا، ومَـنْ يتفاوضـون.

قلتُ:

- يا زول، يَاتو واحِد يخُتّوهو فوق رَفِيقو؟

أخيرًا أدركت أنه يأمرني أن أمْسَح خُبز الفُرن بزيت الطّعام ليبدو أكثر احمرارًا.

أيها المناضلون: هذا المرّوكي يُلاحقني بالفضيحة ويأمُرني بالزّيت.. إنّه يقول لي:

- دِيرهَا هِكِّي وهِكِّي![١٢٧]

أيها الثّوريونَ ما ألطَفَكُم. أنا في حال من يُمكن أن يستنقذ بكم. هذا المرّوكي يريدني أن «أتَجلّط» فكيف أدُسُّ خجلي إن طافَ أحدكم في المكان ورآني أبيع شرف الدَّولة السودانية بحالةٍ مِن «التِمسِحْ» بالزّيت؟

ماذا يقول أهلي إن عدت إليهم بتِلك الرّائِحة؟

هل أقول لهم إن رئيسي المُباشر أصدرَ قرارًا بترقيتي من فرَّان إلى زيَّات؟

عندما وصلنا ضاحية «ضي القمرا» أدركتُ أنّ الشِّبْل يعرِف حدّه في بيت عمّه. حدّه عتبة الدّار.

سقاه القهوة هناكَ. وكان نصيبي من تلك المراسم أن فتح لي باب المخزن:

- هيا يا سُوداني ارفع البضاعة.

١٢٧ افعل كذا وكذا.

بتلك العجلة اختتم الشِّبل زِيارته. لم يشْبَحْ بناويت عمّه. لم يدخل الدّار أصلًا. وهذا يحدث في أرق العوائل. فتح عمّه باب المخزن وأقبلتُ على شُغلي.

- هذه الكراتين خفيفة جدًّا، ماذا بداخلها؟

- إيشْ فيك؟

- أليس من العدْل تنبيهُكم أنّها خفيفة على ظهري وأنّها ليست كتلك الأخياش؟

- خَيركْ يَا سودانِي؟

- أهي برومات البوتاسيوم أم حُبوب كافرة أُخرى؟

البحر قبالة «مصراتة» يعوي مثل ذئاب جائعة. خلف المدى ترقدُ «مالطا» بمآذنها ومخازيها. أنباءٌ من الخرطوم تتحدّث عن تخدير «كارلوس» وتسليمه لفرنسا.. تحت الجِسر الذي يأخذك باتجاه مدينة صرمان كانَ المتشرِّد «معتوق» يلجأ إلى نفقٍ عند خاصرة الكوبري.

إيه، لا أهلَ لمن لا مالَ له!

يهمس السودانيونَ أن الثورةَ صادرت منه كل شيء. رأيته في الضياع تلفحه بواقي عينة البحر. أصحاب المقاهي لا يطيقونه. ما إن يظهر أمام واجهة المحال حتى يحملوا إليه مأكلةٍ في لفافةٍ من ورق. رائحة المعتوق ثقيلة يا صاحِبي...

صُناحه مثل عنق رحِمٍ تذرفُ الخطايا!

وضاعت التفاصيل. ضاعت...

ما أذكره أنها اصطحبتني إلى ٥٤ شارع الرّوضة. غرِقت سيارتها الفِيات في زحيح «المنيل» ساعة الذروة. لوحات الطبلون مُذهّبة ومنحوتة على إطارٍ من خشب. التلوُّث يخنق الأنفاس في وسط البلد، لكنَ عطرًا دافئًا منها يهبط عليَّ.. قالت إن جدّها لأبيها عمل موظّفًا في «الرّي المصري» وإنه جاءَهم من السودان باللُّبان الذّكَرْ.

- إنت ما تعرفش؟

- أعرَف إيه؟

- ما تعرفش اللُّبان الذّكَرْ بيعمل إيه؟

- لا.

- طَبْ ازّاي؟

قالت ذلك بإيحاءاتٍ شتى. قرأتُ في تقطيبة جبينِها ما دفعني إلى تقليب غلْمَنتها تلكَ على جمر الاشتياق..

قلت لها إن سحرةَ فِرعون جُدودِي، وإن «هامانَ» حشرهم إلى الأُقصر من مدائنَ «نَاوَا» وإن كبيرهم مَثُلَ ذاكَ الضُّحى أمام الملأ في هيئة جَرادَة، وعندما آمن بعد ذلكَ بإله موسى، شنَقَه فِرعونكم على جِذع نخلة!

كنت أُبَجِّل الأشياء وأُعرّي ما اختبأ، وكانت هي تغُضُّ الطرفَ عندما تضبُطني جائلًا هنا وهناك.. أُنثى دافئة ومُمطِرة، وكل شيء فيها كان ضخمًا مثلَ عجيزة حُمُر الوحش.

قلت له:

- شوف يا زول، لو جَانِي المِلك بِتاعك ذاتو وقال لِيَّ اعمِل كِدا، حأقول لا.. الشّغلانة دِي أنا ما بسوِّيها!

نطّط المرّوكي عويناته، فقد نطق أجير اسم الذات الملكية مبرأ من عبارات التبجيل.

مضى يشكوني لربِّي المؤمن إيمانًا قطعيًّا بالكتاب الأخضر.

الخزرجيةُ تأتِي في سِربال الخُمرة. البدويةُ تنسِجُ فِخاخ الطّلح بعدَ المغيب. الوجدُ لا يكون مستحيلًا إلا بعد أن يقع.

الخزرجيةُ امرأة واضِحة المعالِم.

رشيقة مثل كلاش. «أُحَاحِيها» وأشتعِرُ خطرها.

جِيدها الأبنوسي وحشَاها الضامِر يوحِيان وحيًا كذوبًا، بأنها لم تلِد ولم يكن لها شأنٌ مع أحد.

في هذا النجع الذي ينضوي تحت لواء الجامِعة العربية أفتقدُ تشَاشِيَات شبابي. النساء في جماهيرية الله يشِحنَ الطريقَ بنصف عين. يتَبلّمْنَ بملافِح كالدّمورية. عندما تُيامِنُ الجماهيريةُ بعلها أو ابنها في سيّارة، فإنها تقبعُ بجانِبه مثلَ

كـومَ حـصى، مثـلَ تِفـلِ شـايٍ أسـفلَ الكـوب!

حـذرني السـوّادون مِـن ذاكَ «اللّـول» ومِـن أشـياءَ كثـيرة. قائمـة المحظـورات كـم هـي طويلـة في «عـصر الجماهـير»:

- لا تُحادث مِفتاحًا إن كانَ في صُحبة أُنثى.

- البدوي في تلك الحال يكون قابلًا للاشتعال.

- لا تقترب منه.

- سيأخذ سلامكَ عليه كالتّجنّي.

- ما تَعاين ليهو نهائي.

- ولكـن.. لكـن ربمـا أدقُـسْ، ربمـا أفتقِـدُ في ذاكَ الطِّـين شـيئًا مـن حـذري.

إيـه، شـتاء المتوسِّـط يتلـكأُ في الرحيـلِ، ورادِيـو الشّـاحِنة يذيـعُ أخبـارًا داميـة عـن إبـادة الـصِّرب لآلاف البوشـناق. كان الشِّـبْل الأكـبر لـربّي يأخـذني في ذلـك اليـوم إلى مقطوعيـة للعِتالـة في ضاحيـة «ضَي القَمَـرَا».

قـال ربّي إن لـه بضاعـة عنـد أخيـه وإن عـليّ أن أشـحنها. النّاتـو يقصـف سراييفـو. جـزّار صربي يُدعـى كراديتـش اقـترف مجـزرةً رهيبـة في سيبرينيتسـا. فرانكشـتاين لا يـزال حيًّـا وإن وقـع في قبضـة العالـم الحُـرّ فسـينعم بالسـجن.

مررنـا عـلى سـهلٍ مـن النّـال يحُـف جـذوع النخـل. الرُّشـاش يُطـرِّي شـجيرات مُتناثِـرة وزنابـق الـبراري تُعلـن قـدوم الرّبيـع. جدائـل عُشـبٍ كأذنـاب الثعالـب تسـوح مـع النسـيم، وعَكـرُ الدُّخـان الـذي أشـعلناه يربـط وشـائجه بيننـا. ابتعدنـا عـن مدينـة الزاويـة مقـدار نصـف سـاعة. كنّـا وحيدَيـن في طريـقٍ خـالٍ. هُنـاكَ أسرَّ لي الشِّـبْلُ ببعـضِ خلجـات روحـه. قـالَ إنّ ليبيـا قبـل الحِصـار الغـربي كانـت بَاهِيـة.

- وأنا مالي؟

كنـت سـاهمًا في الـبرَاح، عالِقًـا بـين رذاذٍ ودُخـان.. أغـراه صمـتي فتشـجّع أكـثرَ حـتى جـاء عـلى ذِكـر حظـر الطـيران فـوق ليبيـا بعـد إسـقاط «طائـرة لوكـربي».

- هذا شأنٌ داخلي يتعلَّق بإحدى دُول الجوار.

قلتهـا بوضـوح، فهـذا المِفتـاح حليـف غـير مضمـون. ربمـا يحفّـزني بعينيـه كي أُعاونـه في حقلـه بـشيء مـن محافـير، ثـم ينقلـب عـليَّ.

لمّا رأيت الإحباط باديًا عليه قلتُ:

- نحن برضو كِدا. نحن أيضًا نعاني الحِصار.

- عِنْكم حظْرْ هِكِّي في السُّودان؟

- نحنَ محظورين «مِنْ الله ولينا»![١٢٨]

- والله جدِّيَّات؟

- الفـرق بيننـا وبينكـم أن حكومتنـا براهـا قالـت، مـا دايـرة علاقـات مـع أمريـكا وبقيـة دول الاسـتكبار.

- واللهِ جِدِّيَّات؟

- الحِصـار مفـروض علينـا، لأن قيادتنـا السياسـية عـاوزة تطبِّـق الشريعـة.

- وبَاهِي، بَاهِي.

في تلـك اللّحظـة، لـم يعُـد بينـه وبيـني سِـوى أنّـه يقـود شـاحِنة ربِّي. عندمـا يصـل عشـيرة في ضيّ القَمَـرا، دَعـه يفعـل بي مـا يحلو لـه. دعـه يسـتعرضني -إن شـاء- كأحـد مقتنياتـه.

عندمـا رأيتـه يُهلِّـل لمـشروع الإنقـاذ الحضـارِي، قلـت لـه إنـني لا أؤمـنُ بالجهـاد، ولا أرى أن الشريعـة هـي الكلمـة النهائيـة في الدِّيـن.

- إنت ما تِبّبيشْ الشريعة؟

- نِحنَ أخدنا علْقتنا، وانتهينا!

- كيف، كيف؟

---

١٢٨ بمحض اختيارِنا.

- أخدنا علقتنا من الإخوان، الكلام عليكم إنتو.

- مِشْ فاهم؟

- جرِّب الكيزان عشان تفْهم!

- بسّ هُمْ إسلاميين.

- بَاهِي، جرِّبوهم وبعدين نشوف إسلامكُمْ دا كيفِنّو.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي «أُبهبِه» فيها وأنا راضٍ عن نفسي.. تُرى لو رضي الله عن هؤلاء المَفاتِيح جميعًا، هل يعبثُ التاريخ بسُنَنِه ليمنحهم الزّمان ديمقراطيةً مُشتهاة؟

وضاعَت التَّفاصيل...

عندما ذابت عُقدة لقائنا قالت:

- وإنت عامِل إيه؟

لم تعد تلك المرأة هي التي استأجرنا شقتها في «طُومَان بَاي». ورِثت عن أبيها كتبًا صفراء عليها شراشِف رصاص مطابع «الأزبكيّة». ما تصفّحتُ كتابًا منها تلك الكتب الصفراء إلّا وطالعتني صورة الملك فؤاد الأول غرِيم سعد زغلول وأول من نُودِي بملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور.

الحياة حلوة لكنها لا تهدأ.

ضاقـت القاهـرة ذرعًـا بالسـودانيينَ بعـد محاولـة الاغتيـال الفاشـلة. وصـل «الريِّـس» مـن أديـس أبابـا غاضبًـا ومنكـوش الشَّـعر، وهـدّدَ باحتـلال بورتسـودان.

بعـدَ شـتاءٍ مـن وداعـي لمـدام جِنـدي عنـدَ منزلـق كوبـري قـصر النيـل، كان الليبي عبـد الجليـل يُقرضـني بعـض عـرقي. اشـتريت أبـرولًا وكَبَـكًا والتَحفـتُ الفضـاء. الجِيفـارات جنـوب الزاويـة كانـت بيوتًـا لأعاريـب «بـني صقـر». بيوتهِـم عِـزب مـن البلـوك تتباعـد بـين الكثبـان. القبيلـة باقيـة وللبـداوة أحكامهـا وزحـفُ الثـورة لا يذيـب الفـوارق الطّبقيـة.

أخـذني مُستأجِري عبـد الجليـل إلى مزرعتـه في الجيفـارات. قلـت لـه إنـي مـزارع ابـن مـزارع، ابـن سـتين فتلـة. لـم يلـقِ بـالًا لمـا أقـول، فالسـوداني عنـده لا يصلُـح إلا في حفـر السّـبالِيق. كنـت أحفـر لـه بمعـدل خمـس مطامـير في اليـوم. أحفِـرُ مـترًا مكعّبًـا، طـولًا وعرضًـا وارتفاعًـا.

قبـل هبـوط الليـل يأخـذني إلى الجـسر الواصِـل بـين مدينـتي الزاويـة وصرْمَـان. إلى الكوبـري الـذي يسـكنه الـ «معتـوق»، ضحيـة الثـورة.

كنت أراوِده كل مساء أن يعطيني حقّي:

- حَاسِبْني يا زول أنا قَفَايَ أعوَجْ.[١٢٩]

١٢٩ ظروفي صعبة.

- بَاهِي، غُدوة نِحاسَبوك.

- إنتَ كل يوم، تقول ليَ بَاكِر بَاكِر؟

- خيرك يا سُودانِي؟

- خير شنو؟ قلت ليك أدّيني حَقِّي.

- خلَّصْ شُغلك أولْ، وبعدين نِحَاسَبوك.

- وشُغلي دا بِنتهي مِتين؟

- شِدّ حيلكْ.

- أشِدْ حيلي كيفِنْ، وهذه المزرعة حَدّها «شريط أُوزو»؟!

لن يعطيني جوابًا ولا مالًا. لو أضربت عن العمل سأفقدُ أجرَ يوم، ولو سخّرتُ نفسي له ربما يقرضني قُوتِي.

غدًا سأحفر له حتى القُريرا. غدًا تكون لي عنده دنانير كثيرة أدفعُ منها لبيت العزّابة وأسافر بالباقِي عبر البحر إلى إيطاليا.. عند باب العزّابة يقابلني ورشل البَصَل وكواريك الكوتشينة وأسئلة اليوم الذي مضى. مستأجري -في الغادية والرايحة- يستغربُ قولي إنَّ السودان دولة كاملة السيادة، وإنَّ بها أنهارًا وشُعراء.. كلّما حدّثته عن مجاز الوطن استنكرني قائِلًا: «والله جِدِّيّات»؟

أربعة أعوام وأنا دون عنوان. لا رسائل ولا أخبارَ إلا ما

تتناقلـه وكالات الأنبـاء عـن تحريـر «توريـت» واحتلالهـا.

الـواردون بِطريـق الكُفـرة يتحدّثـونَ عـن اختفـاء «برشـل»، وعـن طائـرة «رامبـو» الـتي علّقهـا في حدائـق أبريـل، وعـن صينيـة قنـدول شـيّدها في السـوق العربيـة.

اختفـى الرَّطـاني «برشـل» الـذي كان يقـاوِم النظـام بعمامتـه البيضـاء أمـامَ دوّار وزارة الخارجيـة. طـوى الغيـب إغراءاتـه للشـوارع عشـيةَ محاولـة اغتيـال «الريِّـس» في أديـس أبابـا.

كيف وأين اختفى؟

قيل إنه مجنون!

إيـه، أحِـنُّ إلى تلـك الأيام. أحِـنُّ إلى أيـام كانَ للتحبيسـة وللعِطر مـذاق. لهـف نفسي عـلى النسـاء العابـرات للحَزَن.

الخزرجية تأتي في الليل..

أرى ما أرى مِنها، حينَ تفِرّ ثوبها وتستجمعه على كتفيها.

حـينَ تسـوحُ بعينـين قويتـين عـلى الكـراسي والمناضِـد، وأنـا، مَـن أنـا؟

أنا ضِمنًا من أشياءَ لا خطرَ لها في ذلك المقهى.

أنا لا شيء حينَ تدُس صَوابِعها في صدرها وتخرج إلى العلَن.

أين مرابط أفراسها يا إلهي؟

الربيع يُطلق نذارة الغيم. الحندقوق[١٣٠] يكسو الحوافَ وشقوق الحيطان، وبِضع تونسيات يمشينَ الخُطى في شارِع عُمر المُختار، لا يخفينَ ما يجب أن يُخفى مِن زينتهنَّ. حرائر البورقيبا سافرات كحقول القمح.

صادفنا بعضهنَّ أمام المحال التي تبيع شطائر التُّونة والدّجِي. كان الشِّبْل يغازلهن كاشفًا عورته للرياح.

قلت له: احتَشِم!

قال:

- شِينْ فيها؟

- ما فيها شيء بُكلْ، فهكذا السُّلطة، والسُّلطة دومًا في خِدمة الشعب!

كان يحاذيهنّ بالشّاحِنة، ويصرخ:

- ظُ.رِي علَى ظَ. ورِكْ!

كان يمسك بالمِقوّد، يمُد رأسه دونَ حياء، ويتحَاكك قريبًا جدًّا مِنهُنَّ، ويقول:

- قَدَّاشْ لون فَرْعَتِكْ؟

---

١٣٠ زهور صفراء.

وأنا مالي؟

أنا عتّالي.. أنا حمّالٌ يرُص كراتين الحبوب الكافِرة ولا يُسألُ عمّا يجيش داخِلها.

- ما تلك «الفرْعَة»[١٣١] يا أُخوان يا مُسلمين؟

تضاحك السوّادون عندما قلت لهم إنَّ الشبل غازلَ بها بناويت البورقيبا.

الشّرابُ في بيت العزابة لا يحتاج إلى «خمّة نَفَسْ»، فما الخندريسُ سوى الطّحينية والعُنّاب مخلوطًا بالخمير.. بقليلٍ من الصَّبر، يغدو كل ذلك رِزقًا حسنًا.

و، و، وكل الناس طيبين... قالها الأمازيغي الذي كان يدير مقهًى صغيرًا في ركن ميدان الساعة بمِصراتة. كنتُ أشرب قهوته القارِصة فيسلبني الباقي بتلاقيطٍ من قِطع الحلوى واللُّبان.

لا فائِدة، تحاججْتُ معه حتى يعطيني الباقي، فأنا غريب يعيش بميزانية «لِجام الدّلِق».[١٣٢]

قبل نزوحي مِن مِصراتة قلت له إنني لا أتعاطى الحلويات، فسألني: «ليش»؟

١٣١ لباس داخِلي.
١٣٢ بصعوبة بالِغة.

ثم أضاف:

- قَدّاشْ اتْخَلَقْتْ؟[١٣٣]

- «يَخلْقِنْ دِ... كْ»!

- يا بني آدم، رجّع ليَ الباقي.

في الطريق إلى سفارة الكيزان في طرابلس، كنتُ أُحدِّث نفسي.. يجب ألّا أكون عاطلًا أبدًا. سآخذُ كَفافي مِن كُوشة ربِّي، حتى يرزُقني الله، كما يرزُق الطير.

ربّي يُنذرني بتجديد جواز السّفر. يريد مني تجديده ليأخذني رهينةً. أعرِف أنّه لن يُعيد إليّ الجواز إلا إذا تنازلت له عن عَرَقِي. أقرَضني رسوم التجديد. أقرَضَني من حِسابي ما يجعلني داخِل جيبه.

- هَادا جَوازكْ طايِحْ.

- باكِر من الصباح حأمشي السَّفارة السودانية في طرابلس، أجدد الجواز، وأجيبو ليك.

ربِّي يخاف هُروبي من قبضته. لن يجدَ عتّالًا مثلي. لقد حَفِيتْ أقدامي بين طُبْرُق وسِرْت، مِن بنغازي إلى مصراتة إلى الزاوية، حتى وقعت في عِبّه. جئت إليه طائِعًا، وكلما حصدتُ شيئًا من كدحي سخّرته في رحلة البحث عن رزقي.

---

١٣٣ كم عُمْرك؟

دفعت لقنصلية الإخوان رسومًا بمقدار دخلي في أسبوعين. حلال عليكم يا كيزان.. يكفيكم تيهًا أن تطئوا الثُّريّا إذ كانت تجمعني بكم ملّة واحدة. خذوا حصّتكم مِن المصَاري وانصرِفوا.. جدِّدوا لي هويّتي، فإن ربِّي -لو انطبقت السماء على الأرض- لن يمنحني أكثرَ من هذا. ربّي لن يحسب لي أجرَ هذا اليوم. دعني إذن أتسكّعُ في السّاحة الخضراء بطرابلس، ما دمت جِئتُ إليها.

في عين ذاك المكان، صعدَ القائِد لخُطبته الأخيرة.. فوق سطوح المدينة القديمة قالَ لشباب الفاتِح العظيم: غنوا وافرحوا وارقصوا، واقتلوا أعداءكم، لأن من لا يحب القائِد، يستحق الموت!

للسماء زخيخها، وأنا غريب يلوذ بالبرندات. وقفت أمام متجرٍ فأومأ لي رأس صاحِبه أن أُغادِر: «برّا برّا، هيّا برّا»!

غبْرَتي لا تدُل على أنني سأشتري شيئًا. السماءُ تغسل الجدُر، والمَنشّاتُ تلوِّح فوق الرّتاج، وأي بيت عربي هجره الآهِلونَ يصلُح لسُكناي.. قال القائِد إنَّ البيتَ لساكِنه. قال أمام المثابة الكُبرى: توًّا لو طلع النَّبِي مِن قبْره، وقال هذا بيتي، والله ما أعطيه إياه!

ربِّي يحسِدُني على اسمِي.. ربِّي ينادِيني:

- عبد الله السُودانِي.

- نَعَم.

- لمّا تِرْجَع لِبْلادَك نِبّوكْ تِتْمَشْيّخْ على السّوادنة، لكنْ تَوَّا هِنيْ[١٣٤] نِبّوكْ تِخْدِمْ.

- بَاهِي، بَاهِي.

كنت على حُسن ظنٍّ بأن اشتراكية البِيد يمكن أن تحتفي بالأسئلة التي تطرحها الشغيلة في مؤتمراتها.

كنت أعني ما أقول ناسِبًا نسل السؤال إلى الرّفيق الأعلى، لولا أن ربِّي اعتدل في جلسته وقال: نِبّوكْ تِخْدِمْ بِكِّير في الفجْر، بيشْ يِكونْ الخُبز جاهِز مع طلعة الشمس، باهِي؟

عندما تأتي «بَاهِي» في نهاية السطر، فهي شرطٌ لا حيادَ فيه.. وحتى أكونَ في حرزٍ منيع من خيالاته، قلتُ له إنني لا أُصَلِّي الفجر حاضرًا.. قُلتُ إنني لا أرود المسَاجِد.

صمت برهةً، وسَهَم في الغيوم. أوصَلته الرِّسالة وفَهِم مقصدي وهذا يكفي. هذا وضعٌ مريح لي وله وللفاتح العظيم. طمأنتُه بأنني أحِملُ من الدّين ما تيسَّرَ، فمضَى جازِمًا في تعداد مهام وظيفتي:

- نِبّوكْ إنسانْ يِخْدِمْ.

- بَاهِي، بَاهِي.

---

١٣٤ هنا والآن.

- لا تِقِول لي خِرّيج وشيخ إسلام، ومَا أدْرِي إيشْ؟

- يا زول عَوَجة مافي تَبْ.

- بعـد مـا تخلِّـص شُـغل وتِصَـلّي الظُّهـر، تِيجـي تِكْنِـسْ المحـل، باهي؟

قلت له بالفصيح حتى يطمئن أكثر وأكثر:

- ومن قال لكَ إنني مُؤمِن إلى هذه الدرجة؟

- إيشْ، إيشْ؟

- مـا ذنـبي، إن كانـوا قـد ثبَّتـوا ولاءهـم لعقيدتهـم في شـهادة ميـلادي؟

- يعْنِي إنتَ منْتَاشْ[١٣٥] مع الجماعَة؟

- ألا تـرى يـا شـيخ العـرب أن المقَادِيـر قـد جَـرَت بي نحـوَ أوديـةٍ أُخـرى بعـدَ ذاكَ الميـلاد البعيـد؟

ابتسم كَمنْ يُعزِّي نفسه، وقال: بَاهِي، بَاهِي.

رأيتـه بعـدَ ذلـك، يـواري ضَحكاتـه، فقلـت لـه بحـرفٍ حلقومي لا لبْـسَ فيـه: «تفْصِـلْ يَا كبـير»؟[١٣٦]

و، و، و... وعـدتُ أتطلـعُ نحـو سـفرٍ جديـد، لكـنّ قُنصـل

١٣٥ لستَ.

١٣٦ تتراجَع عن موقفك؟

السّـفارة كان لي بالمرصـاد. كلمـا تقدّمـتُ لطلـب التأشـيرة كتـبَ عـلى الصفحـة الأخـيرة مِـن جـواز سـفري مـا معنـاه: «اسـتلمنا الطَّلَـب».

هكـذا أعـود مـرة أخـرى إلى دائـرة الهِجـرة لأسـتخرج جـوازًا جديـدًا، ليكتـب عليـه القنصُـل ببسـاطة، ذات العبـارة، ويختـم عليـه بختـم السـفارة.

أحـد الأصدقـاء اقـترحَ عـليَّ حـلًّا عنـد «آدمـو».. قـال الصّديـق، إن جحافـل مِـن الهاربـين عـبرت المُحيـط الأطلـسي ببخـرةٍ أو حجـابٍ منـه.. قِيـلَ إنـه فـكي جامِـد، «يـروِّب المويـة».[١٣٧]

ذهبـتُ إليـه في «عِشـش فلّاتـة».. «سِـيد الرايحـة يفتـح خشـم البقـرة» وأنـا رَايحـة لي تأشـيرة، ولا بُـدَّ مِـن شيء.. وقفـتُ أمامـه وقلـبي في دائِـرة الحُلْـم.. المـكان حصـيرٌ ودلَاقـين، و، و، مِـن هُنـا ينفتِـح لي الطريـق نحـوَ أبـراج «منهاتِـن».. قلـت لـه قبـل كل شيء: يـا شـيخنا أنـا مـا عِنـدِي شَـغَلة بالحرِيـم!

ضحِـكَ مِـلء شِـدقيه -هِـي هِـي هِـي- وقـال بِتحـدٍّ: مَـرَة أكان دايِـرْ نَجيبـو، همّـة نَجِيبـو ليـك، «يَهَـبِي هَـبِي».[١٣٨]

- أنَـا عـاوز أمـرُقْ مـن البلـد دي، وبـسْ. كانَ يُحـدِّقُ في الحصـيرِ، والـكلابُ في الخـارج تلـوي أذنابهـا للريـح.. كانَ يُحـادِثُ أشـباحًا، يقـول لهـا بصـوت شَـحيح:

١٣٧ يُحيلُ المَاءَ لبناً.

١٣٨ تحبو حبواً.

- تجِيبْ، هسّة تجِيبْ، هيرة أدّيله - خيرة عَديلة، قروش كتير!

- يا مُولانا.

- نَأمْ.[١٣٩]

- أنا عاوِز أسَافِر، وبسْ.

- تسَافِرو، تَسافِرو..

- لكن يا شيخنا، الزّول بِتاع السفارة ده، كلما أمشي للتأشيرة يعاكِسني ويقول لي: كتَّرْ خيركْ، استلمنا الطَّلَبْ.. قلتها بالإنجليزية، لزوم لفت الانتباه.

سألَني باستِنكار: زول ده منو؟

رأيت أن أزيدَ تأثير العَمل فقُلتُ: إن القُنصل الأمريكي «راسو قوي»[١٤٠] ولا يمنح التأشيرة بالسّاهِل.

قال بنبرة واثِقة التمكين: «مُشْ عَلَى كَيفُو»!

بعد ذلك دخلنا في شروط المرابحة.. بعد همهمة وهَمزات، وصُرر مربوطَة، قالَ وعينه في عَيني: شُغْل دَه ما ساهِل.. «شُغْلْ دَه يَدور سبع جَدادات بيضاء».[١٤١]

---

١٣٩ نَعمْ.

١٤٠ عنيد.

١٤١ ذا العمل يتطلّب ذبح سبع دجاجات بيضاء اللون.

- والجداد الأبيض، أنا ألقاهو ليكْ وين؟

- ده جَدادْ لُزوم شُغْل اللّيْلْ.

- يعـني يـا مُولانـا، مُخارجـتي مِـن الكـيزان ديـل، تتوقـف عـلى سـبع دجاجـات فَقَـطْ؟

- أنَا كَلامِي «مَا يَقَعْ وَاتَا».[١٤٢]

- طيِّـب، إيـه رأيـكْ أدفـع ليـك ثمـن الدجاجـات، وتمـشي تشـتريها، إنـتَ بـراكْ، حَسَـبْ المواصفـات؟

أمّـنَ عـلى مُقتَرَحـي، وتمتـم بالرقـم سـبعة عـدة مـرّات.. دفعت ثمنهـا، جنيـه ينطَـحْ جنيـه.. عِندهـا، فَتَـح صفحـةً مِـن جـواز سـفري، وقـامَ بتبْخِيرهـا عـلى دُخـانٍ لـزِج الرّائِحـة..

ثـم نظـر إليّ باسـمًا وقـال: دَه بخـور «راس كِلِـبْ»، قنصُـل بتـاع سـفارة هسَّـة يكون شَـمّاهُو، «وَدّ الْكِـدِكْ»![١٤٣]

تمت

١٤٢ لا يخيب أبدًا.

١٤٣ «ودّ الغلْفَاء».

المؤلف

عبد الله الشيخ، صحفي سوداني.

- الميلاد: الولاية الشمالية - تنقسي الجزيرة، في ٢٣ مارس ١٩٦٢.

- السكرتير الثقافي لاتحاد طلاب الانتفاضة ١٩٨٦.

- بكالوريوس الإعلام، جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٨٧- الدبلوم العالي في الإعلام، جامعة الخرطوم ١٩٩٤.

- عمل بصحف (السياسة)، (الجريدة)، (السودان الحديث)، ثم معلِّمًا بالمدارس الثانوية منذ العام ١٩٩٦ وحتى ٢٠٠٥.

- عاد لمهنته صحفيًّا بعد توقيع اتفاقية نيفاشا، فعمِل محررًا في (الأضواء)، مكتب (الخليج)، وإذاعة (مانقو).

- مدير تحرير صحيفة (صوت الأمّة) ٢٠٠٧.

- رئيس تحرير صحيفة (أجراس الحرية) حتى انفصال دولة الجنوب ٢٠١١.

- نائب رئيس تحرير صحيفة (الأخبار)، ومندوب إعلام (التحالف العربي من أجل دارفور) بالخرطوم ٢٠١٢ ومراسل لـ

(الجزيـرة نـت) ٢٠١٤ - ٢٠١٩.

- كاتـب الزاويـة اليوميـة -خـط الاسـتواء- بعـدة صحـف ومواقـع سودانية.

- صـدر لـه كتـاب (التصـوف بـين الدروشـة والتثويـر) في العـام ٢٠١٣.

- صدرت الطبعة الأولى من رواية (الدّخاخين) في العام ٢٠١٦.

Email: abdallashekh@gmail.com